قطعة صغيرة من الشيكولاتة

اســــــم العمـــــــل	:	قطعـــة صـــغيرة مــن الشـــيكولاتة
النــــــــــــوع	:	قصــــــــــــــــــــــــــص
تــــــــــــأليف	:	علــــــــــي حســـــــــن
تصـــميم الغـــلاف	:	أحمـــــــــــد الملــــــــــواني
إخـــراج داخلــــي	:	عبـــــــدالقادر فــــــــايز
الطباعــــــــــة	:	اتيليــــه تـــاتش – المحروســـة
الناشــــــــــــر	:	الــــدار للنشـــــر والتوزيـــــع
المــــدير العـــام	:	محمــــــــد صــــــلاح مـــــراد
تليفـــــــــــون	:	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريــد الإلكترونـــي	:	eddar_press@yahoo.com
فـــــيس بـــــوك	:	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــــم الإيــــداع	:	٢٠١٧/٢٧٣٧٩
التـــرقيم الـــدولي	:	I.S.B.N.: 978-977-702-203-3

قطعة صغيرة من الشيكولاتة

علي حسن

قصص

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٧

إهـــــــداء

إلى صاحب الفضل بعد الله عز وجل إلى والدي الحبيب؛

مازلت تحيا في قلبي يا أبي.. أهديك أول إبداع لي

علي سيد أحمد حسن

خلف اللسان

الساعة الحادية عشرة ظهرًا، لا أستطيع أن أصف جمال الطقس ولا رقة النسيم في أواخر شهر أكتوبر، عند شاطئ البحر يزداد الجو سحرًا وجمالًا؛ لكن اللغة لا تسعفني لأصف فتنته ورقته، ليتني شاعرا أو أديب، فما القصائد والأدب سوى تخليد لهذا الحسن والبهاء!

الشمس امرأة بارعة الجمال، تعبث بي؛ تغازلني.. تقول وأسمع صوتها:

أنا أجمل من الحور العين، أشرق لك، فما رأيك؟ تعال واستمتع بالبهاء والحسن "

البحر–اليوم – لم أعهده على هذا القدر من الرقة، ينساب رقراقًا، ناعمًا كبساط من حرير، لا يعكر صفاءه موج، تستلقي السماء فوقه وتعانقه، شبق قبلاتها يصيبني بالدوار، تتمدد فتغطيه بزرقتها لتصبح له بساطًا وخيمةً!

أجلس على الشاطئ برماله الذهبية الناعمة، البحر برغم اتساعه فإنني أشعر بقدرتي على احتوائه، طفلٌ صغيرٌ ووديعٌ، على يميني يوجد لسانٌ من الصخور الطبيعية، يمتد من الشاطئ إلى داخل البحر لأكثر من ثلاثة أميال، وعلى يساري ممشى صناعي يمتد مسافة ميل

داخل البحر، ذراعاي امتدا ليحتويا البحر، ويطوقاه بحب ولهفة لقاءٍ بعد طول غياب !

شيء عجيب يلفُ المكان حولي، كأن الدنيا غزلته بخيوط من بهجة، وزرعت فؤادي بأشجار الياسمين!

اختلست وزوجتي يومين كي نقضيهما فى إحدى القرى السياحية في العين السخنة،كانت تلك هي المرة الأولى التي نذهب إلى هناك، وبرغم مشاغلنا ودراسة الأولاد، أصرت تلك المرأة العنيدة أن نذهب دون الأولاد، نقضي ليلتين بغير أطفال أو رقباء، نستمتع بالبحر والهواء والعشق!

وصلنا إلى القرية في العاشرة ولم تنتظر زوجتي حتى نغير ملابسنا ونخرج بل قالت بلغة حاسمة:

دع حقائبنا في الغرفة وتعال لنرى البحر، فأنا على موعد معه، ولا أريد أن أخلف موعدي، دع ما فى يديك وهيا إلى البحر.

لم أكن أبدًا هذا الزوج الذي يسمع لزوجته ويستجيب لها،هذه المرة وجدتني استجب بلا مقاومة أو اعتراض.

الأولاد ليسوا معنا ومن حقها أن تنعم بقليل من الراحة والهدوء، فقد تعبت معهم كثيراً؛ وعانت فى سبيل نجاحهم، وأنا لم أستطع يوماً أن

أرضيها، أو أهبها الحياة التي تشعرها بالسعادة والاستقرار منذ بداية زواجنا،أهملتها كثيراً، ألقيت على عاتقها كل شؤون البيت، وذهبت أبحث عن علاقات ترضي غروري.

هوايتي التنقيب عن النساء المتزوجات، منتهى سعادتي أن أمارس الحب مع زوجة رجل آخر، متعة لا توصف، أشعر بها حين تغوص قدماي في هذا الوحل.

أرجوك لا تذهب بأفكارك بعيداً، فأنا لا أشكو اللقاء مع زوجتي، لا أكرهها، غاية الأمر أن هناك قوة تدفع بي دائما إلى الخيانة والفوز بأشياء ليست من حقي، تجتاحني متعة لا توصف حين أسرق اللذة الحرام، أو أضع يدي على الزوجات الخائنات .

تملكني هذا الشعور فأصبحت أمارسه مع زوجتي حين نتقابل، أعطيها الحب وآخذه، آخذه بعد أن أضفي عليه جوًا من السرية والكتمان، أغدو عاشقًا يخشى العيون وهو يختلس الحب والمتعة من امرأة يعشقها، أتعمد أن أضع يدي على فمها لأكتم صوتها.

عشت في القرية سنوات طويلة، لم تستطع القاهرة محو ثقافتي الريفية، لذلك حين أصف لقاءات العشق مع زوجتي التي أنجبت ولدينا؛ الأول بلغ العشرين، والثاني في السادسة عشرة من عمره فإنني أقول:

"هو لقاء رجل بامرأة، يواعدها سرًا داخل حقول الذرة، يقابلها ويقبلها، فإذا غلبهما الشوق وذابت بين يديه وقدر عليها فتركته ليجردها من كل شيء، كان الصمتُ الأخرسُ، أنفاس تخرج بالكاد، آهات مذبوحة بين رجل وامرأة، رجل يكتم نشوته وامرأة تذبح لذتها، لا يستطيعان البوح بصرخات الجسد ولو همسًا، فأبلغ نشوتي بهذا الانسحاق وتزداد هي كبتًا وضيقًا"

حلو هذا اللقاء وممتع، حلاوة تناسب العشاق وطالبي اللذة الحرام، مشهد تعودت على رؤيته وأنا صغير، أشاهد والدتي في غرفة نوم أبي، على فراشه مع رجال غيره، أراقب خيانتها من ثقب الباب، حتى إذا بلغت ذروة نشوتها وضع من يضاجعها يده على فمها ليكتم آهاتها فلا تصل إلى مسامعي، كم تمنيت أن أبوح لأبي بالسر، يد أمي دائمًا كانت حائلًا بيني وبينه، بيدها تغلق فمي فلا أهمس بكلمة، إن الكيّ بالنار عقاب إذا أخبرت أبي بما رأيت.

لم أتخلص أبدًا من تلك الصور المخزية التي تشعرني بالعار، ودون قصد مني، تصدر عنِّي تصرفات لا تناسب رجلًا يعاشر زوجته، فالرجل يستمتع بالآهات والكلمات الحارة، وكم حاولت أن أصحح هذا الخلل وأتعافى من هذا المرض الذي أصاب زوجتي بالحيرة سنوات طويلة، لذلك ألحت عليَّ لنذهب بعيدًا عن العيون، ونستمتع بالحب، وترفع صوتها كما تشاء، إنها تشتاق للعشق وتهفو إلى أنغامه.

تركنا الحقائب كما طلبت وذهبنا إلى الشاطئ، لم يكن هناك غير امرأة شابة، تحاول أن توقف بكاء طفلتها، تعالى صوت الطفلة تدريجيًّا حتى شعرت بالتأفف؛ وبدأت ألعن المكان الذي جمعني بها وبابنتها، جمال الأم وبراءة الطفلة لم يشفعان لهما، فأنا لا أحب الأطفال وأكره ضجيجهم وصرخاتهم.

الشمس تزداد قربًا والسحاب يمنع أشعتها من الاقتراب ناحيتي، نسائم البحر تأتيني فتضاعف تأثير البيرة في رأسي، تزداد نشوتي، أشعر أنني فوق سحابة مجنونة، تحملني لأعلى ثم تهبط فجأة؛ ثم تعلو ثانية.

زوجتي تنظر إليَّ والبيرة، تزيد نظرات عيوني سحرًا وعمقًا، تعتقد زوجتي أنني أطيل النظر في عيونها فتسألني:

هل تحبني؟

طبعًا.. أنت أجمل امرأة على وجه الأرض وأنا أسعد رجل في التاريخ

تنتشي بإجابتي وتصدق كلماتي وتضع قبلة على شفتي وتقول:

الله.. كلامك حلو، وحشتني رقتك، نسيم البحر سره باتع، لازم نكرر الرحلة كل شهر.. إيه رأيك؟

طبعًا أكيد يا روحي بإذن الله.

تلك كانت إجابتي على سؤال لم أسمعه، أدركت فقط كلمة " ما رأيك " فأيقنت أنه سؤال يستوجب الإجابة بكلمة طبعًا!

البيرة حركت عقلي فعلاً وجعلتني أقول أشياء لا أعرفها ولا أريدها

–يلا نمشي سوا على الممشى اللي هناك ده.

قالت زوجتي تلك الكلمات وهي تمسك بيدي، تحاول أن تدفعني إلى النهوض، وتنظر بعيدًا ناحية الجسر الذي يبعد عنا أكثر من كيلو متر ويمتد داخل البحر المسافة نفسها تقريبًا.

في تلك اللحظة ذهب مفعول البيرة، وبدأت أشعر بما حولي وأستقبل كل ما تقوله بالحرف

–ومالو يا روحي مفيش مشكلة، نمشي، بس نستنى شوية لحد ما نستريح من المشوار.

تمنيت لو تدعني لحالي وتذهب بمفردها إلى الجحيم.

–طيب يا روحي حتزعل لو أنا حبيت أتمشى شوية؟

–لا طبعًا، اتفضلي وخدي راحتك خالص.

فرصة طال انتظارها، سأختلي بنفسي، البحر ملهم والسكون يغمرني بالسعادة، وهذه ساعة صفاء لن تتكرر!

ذهبت زوجتي لتسير على الجسر، هو يبدو بعيدًا، لكنه يناديك ويغريك فتسرع الخطى كي تصل إليه وحينها سوف يعانقك ويشكو إليك ما يعانيه من وحدة، نحن الآن في بدايات الشتاء والمصطافون ليسوا كثيرين وأغلبهم أجانب، وها هي زوجتي ذهبت لتؤنس وحدته، تركتني مع نسيم رائع يبادلني الحب وعبير نادرًا ما يأتي في مثل هذا الوقت.

ما إن أعطتني ظهرها وسارت نحو الجسر حتى شعرت بأنني صرت حرًا طليقًا كالملائكة، أثيريًا لا أحد يراه أو يسمعه، وشعرت كأنني نور لا وزن له أو ظل، وما إن أغمضت عينيَّ كي أرى ما لا أستطيع رويته في هذا العالم المحسوس حتى جاءني صوت من قريب:

-حضرتك من القاهرة؟

إنه صوت السيدة التي تجلس إلى جواري على بعد مترين، فتحت عينيَّ وأدرت رأسي وقلت لها:

-نعم من القاهرة.

كانت امرأة ذات حسن لم أره من قبل، جمال مصري رقيق، سيدة سوداء الشعر واسعة العينين مع لمسة حزن ساحرة تضرب وجهها،

وتطل من عينيها نظرات تضج بالوحدة وسوء الحظ، لها جسد ليس بالممتلئ ولكنه يبرز كل تفاصيله بوضوح.

تستلقي على كتفها طفلتها الجميلة ذات العامين، التي جعلتني منذ دقائق أفكر في الانتقال إلى مكان آخر بعيد عنها كي لا أسمع صوتها، نامت الطفلة وتركت لأمها العنان كي تتحدث معي، وبخبرتي في عالم النساء أيقنت أن أمها تشعر بالوحدة، تريد البوح بأسرارها، امرأة تشتاق إلى حنان الرجل ولمساته الحانية.

لو أن حول تلك السيدة ألف امرأة ما نطقت بكلمة، لحسن حظهاأنني الرجل الذي تبحث عنه، أنا من يقدر على كتم أسرارها ودفن آهاتها، أنا الرجل الذي تبحثين عنه يا سيدتي.

–الأمورة نامت؟ أعتقد أنها كانت تحتاج إلى النوم.

كان سؤالي بداية الطعم لأفتح خزانة أسرارها

ردت بصوت يشبه الهمس:

كانت تحتاج إلى النوم منذ فترة ولكنها تعاني مغصًا جعل النوم صعبًا عليها.

بدأ الحوار بيننا سلسًا دون توقف، جرى كما تخيلته، شعرت بأنها

تريد التقرب أكثر،لا؛ بل تتمنى أن تستلقي على صدري وتشكو.

نظرت إلى الناحية الأخرى، رأيت زوجتي وقد ابتعدت كثيرًا، كادت تصل الممشى، فاطمأن قلبي إلى أنها حتى وإن عادت، سأكون قد نلت ما أريده من جارتي الجميلة.

ممكن أقترب من حضرتك وأجلس على هذا الشيزلونج القريب منك، حتى لا أزعج ميساء ابنتي فتستيقظ من نومها؟

كان سؤالها منتظرًا، أعددت جوابه مسبقًا، فلديَّ حاسة تستشعر المرأة الحائرة التي تحتاج إلى الحب، وتتلهف إلى الحنان، أجبتها: طبعًا تفضلي، رحت أرتب الشيزلونج، وأرفع ماكان عليه، وأعيد ترتيب المنشفة فوقه كأنني أقول لها تعالي استلقي فأنا أريدك!

قامت بترتيب فراش ناعم لابنتها، واهتمت بجعله مريحًا ولينًا، كي تنعم بنوم هادئ، فلا تستيقظ، وتنعم هي بالحديث معي بلا إزعاج.

رأيتها تنثني لتغطي ابنتها وهي بثياب البحر، فعرفت كم أنا محظوظ، وأن هذا الشيطان اللعين يحاول دائمًا أن يغريني بكل جميل، حتى أستمر على دربي ولا أنحرف عنه أبدًا، فوجدتني أقوم بغير قصد بفرك كفيَ معًا، منتشيا بفريستي التي تستحق الإشادة، استدارت ناحيتي فانتبهت وحولت نظري إلي وجهها، وأنا أسوي الشيزلونج براحتي

اليمني، أشرت إليها أن تجلس على يميني، ولأنني أقدر المسافات بين الرجل والمرأة وأعرف تأثيرها في نقل الدفء وإثارة المشاعر وترجمة لغة الجسد، لم أترك لها مسافة كبيرة تفقدنا التواصل الجسدي، تعمدت أن تكون الناحية اليمنى كلها من جسدي تلامس جسدها العاري دون تطفل أو تعمد، حتى وإن بدت هي في اشتياق إلى هذا الاقتراب والتلامس.

أنت متزوج حديثًا؟ وهل التي انصرفت منذ قليل زوجتك؟

نعم زوجتي منذ زمن، كنت أحاول أن أرسم على وجهي ملامح التعاسة والضيق من هذه الزيجة، ثم حاولت أن أرد السؤال بآخر يجعلنا أكثر قربًا فسألتها:

لماذا أتيت بمفردك؟ هل هناك رجل عاقل يترك هذا الحسن وحيدًا؟

وضعت كفيها على وجهها فغطته تمامًا براحتيها، تنفست بعمق ومسحت وجهها بكفيها وهي تتجه بهما لأعلى لتلملم شعرها الذي كاد يغطي وجهها حين طأطأت رأسها لأسفل ثم قالت:

لا أريد أن أتحدث عن زوجي فخياناته ووقاحاته تجبرني على نسيانه، لم يعد يربطني به غير ابنتي التعيسة هذه.

أهلي يرفضون لقب مطلقة، لهذا نحن نعيش معًا تحت سقف واحد كالغرباء، أتابع نزواته وأشم رائحة خياناته كل ليلة مع عودته إلى البيت.

تحدثنا؛ وجدتني أسألها عن أشياء كان من الصعب أن أتطرق إليها في تلك الدقائق القليلة ونحن ما زلنا في أول التعارف، لكنها شجعتني علي ذلك، رأيتها مستعدة لكل أسئلتي، فإجاباتها سريعة وقاطعة، وتأكدت أنها ما أتت بمفردها إلى هنا إلّا وهي تنوي الخيانة، عاقدة العزم على الانتقام من زوجها.

لم أرغب أن أضيع هذا الصيد الثمين، كنت نويت الاستقامة، وهيهات لمثلي أن يستقم، "يموت الزمار وصوابعه بتلعب!"

رأتني أعبث بيدي حولي كأنني أبحث عن شيء أفتقده فسألتني:

هل تبحث عن شيء؟

أبحث عن هاتفي النقال، أستأذنك في تسجيل رقم هاتفي والاتصال به، لأسمع صوت رنينه.

كنت أعرف أنه في حقيبة البحر، لكنني أحببت أن أحصل على رقم هاتفها دون أن أطلبه، لم تمانع وقامت بالاتصال فسمعنا نغمة الهاتف تأتي من الحقيبة بصوت فيروز

"يخرب بيت عيونك يا عاليا .. ياعاليا .. عيونك شو حلوين"

حدثتها وأنا أقترب من شفتيها قائلًا كم هي جميلة تلك العيون السود.

لم تستطيع أن تطيل النظر إلى عينيَّ، وشعرت بارتباكها وحيرتها، وضعت إصبعي على جيدها، محاولًا أن أرفع رأسها واقتربت أكثر من شفتيها لأشم رائحة أنفاسها، فكانت كالمسك، فأغمضت عينيها وشعرت بقشعريرة تصيب جسدها، ودون أن تشعر ألقت برأسها على كتفي، وشفتيها تكاد تلثم نحري، فأصابتني القشعريرة أنا الآخر، لم أتمالك نفسي فضممتها إلى صدري وحاولت أن أبعد برأسي قليلًا لعلي أقدر على تقبيلها، فلم تتركني لأفوز بتقبيلها، بل أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى، وإذا بها تنهض فجأة وتقول زوجتك تركت الممشى حالًا وأراها قادمة.

شعرت كأن زلزالًا ضرب هذا العالم المفعم بالهدوء والطمأنينة، تماسكت ونظرت ناحية الجسر فوجدت زوجتي لاتزالت بعيدة، ومن الصعب أن ترصد حركتنا أو ترى ما نقوم به، فبدأت أستعيد ثباتي وأشرت إلى البحر وقلت لها:

النسيم جميل وزوجتي تفضل دائمًا أن تنام مبكرًا، فهل أغتنم الفرصة وأحضر إلى غرفتك ليكتمل التعارف؟

قالت بصرامة لا تحتمل التعقيب

لا أحب أن أستقبل رجلًا غريبًا في بيتي، لكن كما قلت النسيم جميل والبحر بالغ الروعة، نستطيع أن نتقابل على الشاطئ، هنا وفي وجود زوجتك.

كيف؟ كان سؤالي لها مستنكرًا فكيف أقابلها في وجود زوجتي؟

لا تقلق، سوف أقوم بالتوجه إلى هذا اللسان، وعند نهايته ستجدني في انتظارك، الصخور هناك فيها فراغات وكهوف، زرتها من قبل ولن يرانا أحدًا أبدًا، دع الأمور تسير بغير تعقيد ولا تقلق، دعني أرتب لقاءنا الأول، أما الأن فيجب عليَّ الانصراف قبل أن تتمكن زوجتك من رؤيتنا.

همت بالانصراف، ودون أن أشعر ضممتها إلى صدري بيد ووضعت اليد الأخرى خلف رأسها وقبلتها، حاولت أن تتخلص من قبضتي وانطلقت هاربة نحو مقعدها تحت المظلة، أعادت تسوية شعرها المسترسل على كتفيها بحركة يدين تفتقران الهدوء وهي تنظر إلى طفلتها النائمة، ثم أخذت تبحث عن منشفتها وأنا أتابع جسدها الثائر المنتفض حتى التقطت المنشفة وأحاطت بها خصرها بحركات مرتبكة، ألقت بجسدها على الشيزلونج واضعة يديها على وجهها تحاول أن تستجمع قواها التي خارت.

راقبتها بلهفة، امرأة تشتاق لقاء حميميًا، امرأة لم تعتد الخيانة، ولم تعتد مثل تلك اللقاءات، امرأة يخونها زوجها كل ليلة.

اقتربت زوجتي، استلقيت على الشيزلونج، تنفست بهدوء وانتظام، شهيق عميق ثم زفير يأخذ معه الأرق، هكذا حتى جاءت فكنت كما أريد من صفاء واتزان.

–فاتك نصف عمرك، البحر عند الممشى ساحر والنسيم عليل!

وجهت إليَّ تلك الكلمات فقلت لها بسرعة:

–المهم أنك استمتعتِ يا حبيبتي، أشعر بالسعادة دائمًا حين أرى في عينيكِ البهجة والسرور.

انحنت زوجتي تقبلني فأومأت إليها بأن العيون تتابعنا؛ ثم نظرت إلى جارتي فشعرت بارتباكها، وبأنها تسترق السمع وتتابعنا!

وضعت يدي على الشيزلونج بجواري وسألت زوجتي أن تسترح، وأخرجت لها من حقيبتنا عصير الأناناس الذي تعشقه ، صببته في كوب وقدمته إليها وأنا أمسح على شعرها الذي عبث به نسيم البحر، فطوقتني بيديها وقبلتني بشوق زوجة تشتاق إلى زوجها وسألتني سؤالها المعاد آلاف المرات:

-هل تحبني؟

لم أكد أجيبها حتى سمعت صوتًا يأتي من خلفنا فرجعت إلى الخلف والتفت إلى من يحدثنا فإذا بها جارتنا تقف بارتباكها ذاته والخجل يلون وجنتيها!

-أسفة جدًا لتعكير صفوكما.

فقلت لها أبدًا تفضلي، في الوقت نفسه الذي كانت زوجتي ترمقها بنظرات تبرم تنم عن غيرة وضيق لا حدود لهما.

حاولت تدارك الأمر وأنا أسمع دقات قلبها قائلًا

-هل أستطيع تقديم أية مساعدة ؟

سألتها وأنا أنظر إلى زوجتي ربما تقلل حدة نظراتها، ففهمت ما أطلبه وأشاحت بوجهها بعيدًا عنها، نظرت إلى الجهة الأخرى وهي تمسح بكفيها على حاجبيها وعينيها.

قالت جارتنا:

-أريد ترك ابنتي معكما لبضع دقائق، سأذهب لإحضار بعض الأغراض من غرفتي وأعود سريعًا، ولا داعي للقلق فابنتي لا تزال

مستغرقة في النوم.

كانت توجه كلامها إليَّ، وزوجتي تنظر إلى الناحية الأخرى عاقدًة ذراعيها علي صدرها، فقلت لها على الرحب والسعة وقبل أن تشكرني نظرت زوجتي بحنق إليَّ وقالت:

–نحن نستعد للعودة إلى الغرفة!

تلعثمت قليلًا لإحساسي بالحرج، ولأنني لا أريد أن أخسر تلك الفرصة وهذا اللقاء فقلت لزوجتي

–حبيبتي، مفيش مشكلة، ننتظر شوية لحد المدام ماترجع.

ثم وجهت حديثي لجارتي وسألتها:

–هل لي أن أعرف اسم حضرتك واسم الطفلة الجميلة؟

أجابتني برقة وبابتسامة كلها مكر ودهاء

–اسمي سلمى وابنتي اسمها ميساء.

أخذت زوجتي تحملق فيَّ باستغراب وهي تضمم يدها اليمني على شفتيها وذقنها وتميل برأسها قليلًا ناحيتي.

شعرت بالارتباك ثانية لكنني استجمعت كل قواي لأبدو طبيعيًّا ثم قلت:

–اتفضلي يا مدام، وتأكدي أن ميساء في أمان.

قلت ذلك وحاولت أن أصرف نظري بعيدًا عن عيون زوجتي، كي لا أزيد من حنقها وغضبها، فما كادت سلمى تتصرف حتى تلقيت لكمة مداعبة من زوجتي في صدري وقالت بصوت مشوب بالعتاب:

–لماذا وافقت على أن تترك ابنتها معنا؟

–الطفلة نائمة ولن يضيرنا شيء أن نتركها نائمة بجوارنا.

–أنا لا أريد أن يقترب منا أحد أو يقتحم خلوتنا.

–حبيبتي كل ما تتمنيه ستجدينه.

–كيف والطفلة بجواري؟

حاولت أن أداعبها لأقلل من حدة كلماتها وأستعيد رقتها التي غابت عنها مرة أخرى فقلت لها مداعبًا:

–دقائق قليلة وتعود جارتنا، أما أنا فسأذهب إلى الحمام وأحضر البيرة التي تعشقينها لعلها تعيد لك بعض هدوءك.

-أنا لا أريد بيرة ولا أريدك أن تتركني.

-خمس دقائق فقط وسأعود لنذهب إلى هذا اللسان الصخري البعيد!

نظرت إليَّ وهي تفتح عينيها مذهولة ثم قالت:

-أنا لا أستطيع أن أمشي تلك المسافة الآن واللسان بعيد.

-إذن دعيني أذهب إليه وأستطلع الأمر هناك، فإن أعجبني حملتك على يدي حتى نصل إليه أو أتيت به تحت أقدامك.

-أنا متعبة الآن.

كانت تقول كلماتها بحدة و نبرات صوتها فيها قليل من غضب.

أجبتها بكل براءة:

-سأذهب كما قلت لك وأعود إليكِ، فحاولي أن تستلقي قليلًا واغنمي إغفاءة تسترجعين بها نشاطك وحيويتك، ثم نذهب إلى اللسان معًا ومازلت عند وعدي لك بأن أحملكِ على يدي.

ضحكت والنعاس بدأ يداعب عينيها، فاستثمرت ذلك الشعور ووضعت عليها منشفتي ثم قبلتها برقة ومسحت على خدها براحتي

قائلًا:

-لن أغيب، سأعود سريعًا.

تركتها وأنا أشعر بقلبي يرقص داخل صدري والدنيا كلها تغني معي أنشودة النصر، وما إن ابتعدت عنها حتى غيرت مقصدي واتجهت ناحية اللسان الذي كان ينادي بكل شوق، ويحجب خلفه أجمل امرأة تنتظر بشوق وتتطلع إلى أول تجربة خيانة، أنا السكين الذي ستغمده في قلب زوجها !

قطعة صغيرة من الشيكولاتة

حاولت أن أعيش سعيدًا وأتذوق طعم الحياة الهادئة فلم أفلح، أغلب الظن أن أسير الذكريات مثلي لن يدعه الماضي حتي يُجهز عليه، وسواء كانت الذكريات سعيدة أم حزينة فإن المرء سوف يتعذب بها ويكتوي نارهما حتى يوارى الثرى!

بحثت عن الحب طيلة عشرين عامًا قضيتها مع سماح، زوجتي وابنة عمي فلم أجده، كان زواجًا فاشلًا عقيمًا، لا عاطفة فيه ولا أبناء يبعثون الدفء ويزرعون الأمل في قلوبنا، كانت سماح مذبوحة الشهوة باردة الجسد لا تشتهي الجنس أبدًا!

أصيبت سماح بالسرطان، فأمضيت السنوات الخمس الأخيرة معها بين مستشفى القصر العيني ومستشفى طنطا الجامعي، ولأنها لم تجد في حياتها شيئًا يستحق الحياة فقد استسلمت للموت، أما أنا فلم أحزن لفراقها، ولكن تظاهرت باللوعة والحزن أمام الأهل والجيران الذين بكوا خُلقها وطيب عشرتها أكثر مني !

قضيت بعد وفاة زوجتي خمس سنوات أخرى عجافًا، طبيعة عملي كموظف زادت حياتي رتابة، فأنا أعمل موظفًا في قسم شؤون الطلاب بإحدى كليات جامعة طنطا، أستيقظ كل صباح مجهدًا، كأني لم أنم

ليلتي، أعد فنجان القهوة وأدخن سيجارتي، ثم أخرج مسرعًا كي ألحق بالحافلة الخاصة بموظفي الجامعة، فهي تمر على قريتي التي تبعد عشرة كيلو مترات فقط عن مدينة طنطا، أنتهي من عملي في الثالثة عصرًا، أعود إلى بيتي، أصارع الوحدة والضجر حتى أستسلم للنوم منهكًا، أنهض في اليوم التالي فأكرر هذا الروتين السخيف!

فكرت كثيرًا في الزواج لعلي أصادف المتعة والسعادة من جديد، لكن صورتي في المرآة كانت دائمًا ما تمنعني، إذ كيف أتزوج وأنا سوف أُحال إلى التقاعد بعد ست سنوات!

أنا أخشى الزواج من امرأة مطلقة او أرملة، فأعيد الكرة من جديد مع زوجة مريضة، المارد الذي يسكن داخلي لن تتحمله امرأة تخطت الأربعين، إنه وحشٌ مفترسٌ، قيدته داخل أحشائي سنوات طويلة، سنوات يصارع من أجل التحرر، ليلتهم اللحم ويذوب في رائحة الجنس اللذيذ!

أنا أعرف النساء، خبير بدروبهن الوعرة، قادر على إخراج كنوز أية امرأة مهما بلغت من كبر وعناد، إن الألم في جسدي وقلبي إنما يعود لعطشي لهن ولهفتي أن أرتوي بنار العناق ومتعة الجسد!

أنا الرجل الوحيد في هذا العالم الذي عرف الجنس على يد امرأة تكبره بعشرين سنة حين كنت طفلًا في الخامسة من عمري!

نعم... إنها صابرين الملعونة!

تلك المرأة الجميلة التي تقول للقمر " ها أنا ذا بفتنتي ..أنا أكثر منك جمالًا.. أنا أعظم منك بهاءً!"

قضيت سنوات عمري على ذكرى تلك المرأة، الزوجة الثانية للحاج مسعود، أحد أقرباء أبي، صاحب وكالة لبيع الخضار والفاكهة وسيارة كبيرة يستعملها لنقل البضائع، كان الحاج مسعود يكبرها بثلاثين سنة!

تزوجها بعد أن ملّ تسلط زوجته الأولى، الحاجة هدى، التي تنازل لها عن كل شيء، الوكالة والسيارة والبيت، كان ناقمًا عليها مطيعًا لها، يخشاهالدرجة أنه أخفى عليها زواجه من صابرين لأكثر من ثلاث سنوات.

اتخذ الحاج مسعود لصابرين غرفة نوم في بيت أبي، البيت من ثلاثة طوابق، الطابق الأول يتكون من غرفة لاستقبال الضيوف، وغرفة للنوم تُسمى غرفة المسافرين، لها حمام صغير خاص بها، تلك الغرفة أصبحت غرفة صابرين.

كان الحاج مسعود قليلًا ما يأتي لزيارة صابرين، فإذا قتله الحنين لجسد صابرين الناعم واشتاق للحمها الأبيض البض زارها لساعة من نهار، يسرق الحب بنهم وينتشي بعلاقة عشق ساخنة يعيش على

ذكراها أسبوعين وأحيانًا شهرًا، كان يقتنص تلك الساعة دون علم الحاجة هدى، التي إن علمت بأمره فسوف تحيل أيامه كلها سوادًا وتطرده إلى الشارع بلا مأوى!

كنت ألعب بمفردي ذات يوم في الطابق الأرضي وبالتحديد في الممر الذي تطل عليه الغرفتين بما فيهما غرفة صابرين، فإذا بها تفتح الباب وتطل برأسها كأنها تخشى أن يراها أحد، ثم تشير إليَ بيدها كي آتي إليها، أسرعت إليها فوضعت يدها على رأسي ودفعتني بلطف إلى داخل غرفتها، أغلقت الباب من الداخل ثم انحنت لتقبلني بكل حنان قائلة:

–إنت ليه مش بتيجي تلعب معايا؟ ..أنا نفسي ألعب معاك!

وقبل أن أجيبها قامت بضمي إلى صدرها، عانقتني عناقًا حارًا ملتهبًا، لم يستطع أي عناق بعده أن ينسيني دفء صدرها طيلة حياتي، مضت تمرر يدها اليمنى على شعري وظهري، ويدها اليسرى تزيد في الضغط عليَّ لألتصق تمامًا بصدرها الذي كان كالجمر يبث لهيبًا ويبعث نبضات أستشعر قوتها، رفعتني بكل حنان وهي تحتضنني وسارت بي إلى سريرها الذي مازلت أذكر ألوان أغطيتة الجميلة التي كانت تكسوه، مازلت أشم رائحته المثيرة وملمسه الحريري، فهي عروس لم يمض على زواجها غير شهور قليلة!

أجلستني على فراشها، قالت لي سأغير ملابسي كي لا تتسخ حين نبدأ اللعب معًا، وإياك أن تنظر إليَّ حتى أنتهي، فأنا أخجل منك، فوضعت يدي على عيني، ومن حين إلى آخر كنت أسألها

-خلاص ؟

-لا .. لسة.

حتي انتهت من تغيير ملابسها أو بالأحرى من خلع كل ثيابها، لقد ارتدت ثوبًا شفافًا قصيرًا إلى حد جعلني أقول بعفوية طفل

-كده عيب إنت عريانة!

تجاهلتني وقامت بإطفاء المصباح، استلقت بجواري على الفراش، وبدأت أنا تدريجيًا أحدد ملامح وجهها في هذا الظلام الحالك فسألتها

-هل ستنامين؟ قُلتِ إنك ستلعبين معي.

فقامت باحتوائي تمامًا، وأخذت طرف الغطاء الناعم بيدها لتضعه على كلينا، وإذا بزفرات ساخنة بدأت تطيح بوجهي، شعرت بجسدي الصغير يذوب تدريجيا داخل جسدها الذي تأجج سخنونة وألقى بحمم ولهب.

كل الذي دار بيننا أذهلني، أفعال مهوسة لم آلفها قط، أحاسيس مسعورة لا أدرك سر جنونها، لكنني شعرت بلذتها، حرارة الشفاه ورعشتها وهي تقبل كل جسدي، يدها التي تعبث بشعري وتضم رأسي إليها كي تلامس شفاهي عنقها وأذنيها، ويدها الأخرى تدفع قدمي اليسرى إلى داخل جسدها.

رويدًا رويدًا بدأت تضغط بيدها على قدمي الصغيرة لتنفذ إلى الأعماق، تارة تستلقي عليَّ برفق ممسكة بكلتا يدي لتداعب بهما نهديها، وتارة أخرى تحملني فوقها وتضغط بقدمي لتنفذا إلى حيث تريد وتشتهي فتزداد وتيرة الزفرات والتأوهات وتلتهمني بقبلاتها الشبقة.

لم أكن لأستوعب المعنى الحقيقي لما دار بيننا في حينه، غير أنني أيقنته تمامًا حين كبرت وبلغت مبلغ الرجال.

إن صابرين تحترق لغياب زوجها البليد، زوج ترك أنثاه جائعةً أيامًا وأسابيع، فتحول شبقها واحتياجها للرجل إلى غول لم يجد غيري ليفترسه.

ألفت صابرين طريقتها هذه في إخماد شهوتها المكبوته، وكلما هاجت واحتاجت إلى من يطفئ شبقها والنار التي تستعر بداخلها، دعتني إلى اللعب معها، لا أنكر أنني كنت أستمتع باللذة البريئة، فأحوم حول غرفتها من حين لآخر لعلها تحتاج إليَّ فأدخل وأنهل من

هذا الحب المختلف، وبعد أن تفرغ في كل مرة مابداخلها من هوس وسعار، كانت تمنحني قطعة صغيرة من الشوكولاتة وتقول في ابتسامة ملؤها الرضا التام والارتواء

–كم أنت رائع حقًا، ولأنك تحب اللعب معي فأنت تستحق هذه القطعة من الشيكولاتة.

ثم تفتح باب الغرفة وتخرج رأسها قليلا لتتأكد من أن الممر أمام غرفتها خالٍ، فتمد يدها وتمسك برأسي، تدفعني بلطف خارج غرفتها وأنا أمسك بقطعة الشيكولاتة، أصعد بعد تناولها إلى أمي محاولًا قبل أن أدخل إزالة كل ما علق بجسدي ووجهي من أثر قبلاتها الجائعة ورضاب شهوتها المسعورة!

أدلف إلى شقتنا في الطابق العلوي، لا أتكلم أبدًا، بل أنزوي إلى فراشي سريعًا كي لا يكتشف أحد أمري، مع الوقت وبالفطرة أيقنت أن ما تفعله معي صابرين هو شذوذ، إذا أخبرت به أحد عاقبني، وقد يطردونها فتذهب بعيدًا وتذهب معها تلك المتعة الجميلة، وتضيع العاطفة الفريدة التي تغمرني بها صابرين حين أكون معها.

لحظات من الدفء سكنت داخلي، تمكنت مني، أستحضر لذتها وقت الحاجة لها شابًا، ذاكرتي عامرة بلقاءات صابرين الساخنة، كبرت وكبر داخلي نفس الغول الذي سكن صابرين ومزق جسدها المفتون

بالجنس! فيضان مشاعر ساخنة انقطع عني فجأة، عندما أخذ الحاج مسعود صابرين لتسكن في شقتها الجديدة التي استأجرها بعد حملها، المولود القادم شدً من أذره، جعله لا يأبه بزوجته العاقر .. هدى، التي علمت بقصتهما فحاولت بسط نفوذها فلم تفلح، فشلت في أن ترغمه على تطليقها، فاستسلمت للأمر الواقع ورضيت بأن تكون لمسعود زوجة ثانية.

لا أعرف لماذا عادت إليَّ تلك الذكريات، وما سبب رجوع صابرين إلى مخيلتي بكل تفاصيل جسدها المثير، صوت تأوهاتها حين تصل إلى نشوتها مع طفل في الخامسة من عمره!

قد يكون هذا هاجسًا داخليًا ينتابني حين أفكر في الزواج من فتاة تستطيع أن تشبع رغباتي وتتحمل هذا المارد الذي يعاني السجن داخل جسدي منذ سنوات ولم يجد فرصة واحدة طوال حياته ليتحرر داخل أنثى تطعمه وتسقيه، فإلى الآن مازال مكبوتًا يعاني الحرمان واللهفة ، ويشتهي لحم النساء الذي عشقه بالفطرة وتفتحت عيناه عليه منذ نعومة أظافره!

مازلت أتمتع بقوة كالزلزال تستطيع أن تدمر كل نساء الأرض، وأحتفظ بشرير يقف صامدًا أمام أعتى نساء العالم فينتشين بما يقدمه لهن، فلماذا لا أرتبط بامرأة؟

فتشت في النساء عن امرأة تناسبني في العمر، في كل مرة أهرب قبل البدء، تتبدد فكرة الارتباط بثيب أمام فتاة تتمتع بصغر السن وتملك قدرًا كبيرًا أيضًا من الجمال، يجب عليَّ أن أرتوي وأشبع قبل أن يأكلني الدود فما هي إلا حياة نعيشها، أمضيت أغلب سنواتها بغير متعة ودون سعادة.

في قريتنا الصغيرة عائلات فقيرة، فتيات تخطين الثلاثين ولم يتزوجن، اعتقدت في بادئ الأمر أن اقتران فتاة برجل في مثل سني شيء صعب المنال فإذا به غاية في السهولة واليسر، الشباب عازف عن الزواج لضيق ذات اليد والبنات فاكهة، نضجت على اشجارها وتنتظر من يقطفها ويستمتع بحلاوتها، فإن طال انتظارها سقطت على الأرض، يضربها العطن!

وقعت عيناي على رحاب ابنة الحاج مرزوق وأردت أن أقطفها، فتاة جامعية، عمرها خمس وثلاثون

سنة، لم يتقدم أحد لخطبتها لأن الحاج مرزوق كان مشهورًا في قريتنا بأنه مرابٍ جشع، يعشق المال.

كان هذا في صالحي، وافق مرزوق حين تقدمت إليه طالبًا يد ابنته رحاب، ظن أنني رجل ثري، لدي المال الذي يعشقه وأطلق عليه "خميرة"، إن تلك الخميرة سوف تؤول لابنته قريبًا حين أموت.

هذا ما تبادر إلى ذهني من أول وهلة حين جلست معه في أول لقاء جمع بيننا، كان جلفًا في حديثه، غلب على حواره المال، حاولت أن أغض الطرف عن طمعه حتى أفوز بابنته التي لا يعيبها شيء سواه، أقسمت ذات مرة بعد أن خرجت من عنده أنه لن يدخل بيتي أبدًا فور الزواج من ابنته، تلك العروس الجميلة.

انتقلت رحاب بعد زواجنا إلى بيتي القديم الذي شهد طفولتي وسنوات الرهبنة التي قضيتها مع ابنة عمي سماح، فجأة تحول البيت إلى جنة تسكنه واحدة من الحور العين، وانطلق المارد الذي كان مقيدًا داخلي لسنوات طويلة، أخذ يعربد ويحطم كل القيود، ينهل من رحاب ويتفنن في الاستمتاع بها وهي تأخذ منه العشق والحب بشغف وشبق، فكم تاقت نفسها هي الأخرى إلى الجنس منذ سنوات، فأطلقت العنان للمارد، فصار البيت مكانا للنشوة والمتعة وأفرغ كلٌ منا شبقه المكبوت، وسعاره المحموم، حطمنا كل قيود الخجل، أصبحنا لا نعير الحياء الذي ينشأ بين المتزوجين حديثا أي اهتمام، الحياء يرغمنا على التمهل الذي نكرهه، فغدونا نشم رائحة الجسدين المنتشيين تفوح في كل أركان البيت، نتنسم عبيرها فتشعل شهوتنا من جديد وتجعلنا نقبل على ممارسة الحب والعشق مرات ومرات!

كانت هذه حالنا طوال ستة أشهر هي عمر زواجي من رحاب، لم أعد قادرًا على أن أتركها وأذهب إلى عملي، أذهلني أن الشوق نفسه

يؤلمها، بل تتلهف للحب وتذوب فيه أكثر مني، تدغدغها الرعشات والقشعريرة في كل مرة كنا نمارس الحب فيها، كانت لا تستمتع بالنوم العميق إلّا بعد أن ترتوي وتسحقها النشوة لدرجة أنها بكت ورأيتها تنهار حين أخبرتها أن رئيسي في العمل كلفني بحضور ملتقى الجامعات العربية في تونس ويتطلب ذلك الحرمان منها لمدة إسبوعين.

وعدتها أن أتواصل معها يوميا كي أخفف عنها الحزن أثناء السفر، وأحضر لها عند عودتي كل ما تتمناه لأُعوضها عن أيام الوحدة والفراق.

بالكاد هدأت رحاب واستسلمت لسفرٍ كان ثقيلًا كالجبال، لكنه أشعل داخلنا الشوق أكثر، أصابنا بالجنون من فرط الشوق، أحسست بأنني طفل فقد أمه رغم أني أهاتفها يوميًا وأستمع إلى حديثها الساحر وهي تشكو الشوق لأحضاني.

رجعت إلى البيت بعد أسبوعين من الغياب، أحمل شوقًا لا يوصف لرحاب، اجتزت الطرقة التي طالما لعبت فيها، صعدت السلم الداخلي وعلى باب غرفة نومي فاجأتني رحاب وهي في ثياب النوم تمد يدها وتمسك برأس طفل هو ابن جار لنا، تدفعه بلطف خارج غرفتها وهو يمسك في يده بقطعة صغيرة من الشيكولاتة !

ثمار المانجو والصبار

هاتفت زوجتي من مطار دبي الدولي قبل إقلاع الطائرة بقليل، أخبرتها بموعد وصولي للقاهرة ثم توجهت مباشرة لإنهاء إجراءات السفر والصعود إلى الطائرة.

المضيفات يرسلن ابتسامات مصطنعة وعبارات ترحيب مكررة لكل راكب يجتاز باب الطائرة وهناك واحدة منهن ترشد كل راكب إلى موقع المقعد المخصص له، وحين وصلت إلى المقعد بدأت أتفحص وجوه من يدخلون الطائرة، كلما لاحت أمامي سيدة تملك قدرًا من الجمال أقول لعلها ستكون جارتي على المقعد المجاور، لقد كنت أتطلع بشوق إلى أن أجالس سيدة حسناء، نتبادل معا أطراف الحديث ليمر الوقت سريعًا.

كلما وقعت عيناي على امرأة تجسد ما أريد وأتمنى، تمر وتعبر من أمامي وتتجه إلى مكان آخر بعيد عني، حتي فقدت الأمل تمامًا فقلت: مقعد خاوٍ خير من أن يأتي رجل لا أرغب في وجوده ولا في الحديث معه.

وإذا المصادفة تأتي من الخلف، امرأة تملك من الجمال ما يحرك كل ساكن، تهلل وجهي وبدأت أشعر بالغبطة وتابعتها وهي تنظر إلى

أعلى حيث أرقام المقاعد المثبته لتتأكد من رقم مقعدها ثم وضعت حقيبتها الصغيرة وحقيبة المكياج ونظرت إليَّ مبتسمة وقالت:

-هاي

-هاي، قلتها بصوت أحاول أن أجعله رقيقًا مع ابتسامة أكثر رقة!

جلست وما إن ربطت حزام الأمان حتى تنفست الصعداء ثم نظرت إليَّ وعلى وجهها ابتسامة ملائكية

وسألتني

-هل أنت عربي؟

-نعم، أنا مصري

-جميل، إذًا لن أشعر بالملل طوال رحلتي.

ثم عرفتني بنفسها قائلة:

-اسمي فاطمة، لبنانية وأعيش مع زوجي في دبي منذ عشر سنوات، لكنني من وقت لآخر أزور أهلي في بيروت، زوجي يعمل مديرًا إقليميًّا لشركة كبيرة في دبي ولدي طفلتان، لينا تسع سنوات ولَنَى

سبع سنوات تركتهما مع المربية لترعاهم أثناء غيابي فرحلتنا ليست طويلة، عشرة أيام يقوم فيها زوجي ببعض المهام الخاصة بعمله ونرى الأهل ونطمئن عليهم ثم نعود.

كانت تتحدث بعفوية تبعث على الإعجاب، وبسمتها البريئة الرقيقة توحي بثقة في النفس لامثيل لها، وكانت تستعمل يديها في التعبير بطريقة تجعلك تريد أن تقبلها، وحين تضحك وتتمايل للأمام أو ناحيتي ينهدل شعرها كخيوط من حرير بلون الذهب، وكأنها نسجته من أشعة الشمس وقت الغروب فتعود وتلملمه بيديها الرقيقتين، فتنبعث من جسدها نسائم عطر عبقري، هو أرق وأجمل عطور الأرض ليغطي المكان بيننا فبدأت القشعريرة تتسرب إلى جسدي وأشعر بدفء أنوثتها فأغيب عنها قليلًا، وحين أفيق أجدها لم تصمت بعد، لا تزال تتحدث بعفوية وعذوبة!

–زوجي ولأنه مدير فهو يهتم بالشكليات ومستوى درجات الضيافة على الطائرة، لكنني لا أهتم بتلك الأمور أبدًا، حين أخبرني برغبته في السفر طلبت منه أن يحجز لنفسه في الدرجة الأولى "في أي بي"، كما يشاء أما أنا فيكفي أن يحجز لي تذكرة اقتصادية، ويعطني الفرق في السعر لأشتري به ما أريده، ففي كلا الحالتين سوف نصل وليس لي حاجة في أن أركب في الدرجة الأولي إطلاقًا فوافق .

تخرج من بين شفتيها ضحكات بريئة، لكنها تقتل من يشعر

بالحرمان مثلي، فأحاول أن أظهر أمامها ثابتًا وأسألها بلطف

–كيف تركت الابنتين مع المربية؟

–تربيت على الاعتماد على النفس والثقة فيها، وكذلك نشأت على حرية أخذ القرار وتحمل عواقبه، إن آدم وحواء مثل السالب والموجب، لكل طرف خصائص تميزه وتظهر شخصيته واختلافه، والاختلاف هو سر التقارب، وهو السبب في التجاذب بينهما، فإذا تشابها إلى حد اختفاء شخصية الآخر تنافرا، لذلك ينجذب آدم دائمًا إلى حواء كما ينجذب الموجب نحو السالب، المرأة كالرجل لها دور يجب أن تقوم به، يجب أن تبني ذاتها وتهتم بثقافتها كي تستطيع أن تؤثر في المجتمع، ولذلك أحاول مع بنتيّ أن أنمي فيهما كل تلك الصفات، وزوجي يحترم عقلي ويساعدني في تربيتهما، ونتفق تمامًا في وجهات النظر، وحين نختلف نتناقش ويحاول كل طرف أن يقنع الآخر بوجهة نظره ثم نتخذ قراراتنا عن اقتناع واتفاق .

أخذت تفتح موضوعات شتى، وما إن تنتهي من حديث، حتى تبدأ في حديث آخر، وأنا أنظر إليها منبهرًا لا أكاد أصدق كل هذه التلقائية والثقة بالنفس، التي تفتقر زوجتي إليها، وبدأت تدريجيًّا أصنع المقارنات بينها وبين زوجتي، وأرى فيها أشياء كنت أتمنى أن أجدها في زوجتي، إن جمالها كاد يأسرني ويخطف عقلي، فهي تتحدث بلا عائق وعيناها تتجه إلى عينيَّ مباشرة لا انكسار ولا حيرة فيهما، وأنا أتابعها بكل

حواسي وأذوب حين تضحك أو تميل تجاهي بابتساماتها التي تبعث الضياء في كل مكان وتشعرك بالتفاؤل والأمل.

فجأة وحين تعالت ضحكاتها برقتها وأنوثتها المعهودة، وقف عند مقعدها شاب وسيم فارع الطول يضمم يديه على خديها بكل رفق ويسألها

-شو الأخبار حبيبتي؟

-أنا بخير الحمد لله، معي جار لطيف "شو مهضوم" نتبادل أطراف الحديث معا ولا ينقصني شيء، ثم تتابع حديثها معه قائلة برقة وعذوبة

-روح إنت عند ال "في أي بي" وخلينا إحنا الغلابة نحكي سوا.

-يضحك زوجها بعفوية جميلة ثم يوجه كلامه لي "دير بالك ما بتبطل حكي وحتكسرلك راسك!"

-لا أبدًا هي ظريفة جدًا، قلتها وأنا أرسل له ابتسامة أحاول أن أكسوها برقة ولطف!

-ميرسي كتير، قالاها في وقت واحد وبالطريقة نفسها!

أخذا يتبادلان الحديث بصوت منخفض، يصلني ولكن عقلي قد سافر إلى مصر، حيث زوجتي التي لا تستطيع أن تتحدث بتلك اللباقة، ولا تملك تلك الثقافة أو الحرية في الحديث برغم كونها طبيبة!

وتذكرت آخر نقاش جرى بيننا، منذ سنوات الزواج الأولى، ثم بعدها لم أجد لديها شيئًا كي نتناقش حوله أبدًا !

أشتري لزوجتي روائح من أفخر الأنواع وأشهر الماركات العالمية، لكن أريج عطرها لم يدغدغ مشاعري كما فعل بي عطر فاطمة أبدًا، إن خصلات شعر فاطمة فعلت بي ما لم تفعله آهات زوجتي في لقاءات الليل والغريزة!

كان حديث النفس يثير داخلي شوقًا كي أغرق في عينيَ فاطمة، ويحفزني الإعجاب به كي أملأ صدري بعبيرها المفعم بالأنوثة، والقادر على تحريك كل مشاعري البريئة منها وغير البريئة!

بعد أن تناولنا الوجبات الساخنة التي وزعتها مضيفات الطائرة علينا، بدأت تشعر فاطمة بالنعاس ولاحظت أن عينيها بدأتا ترتخيان عندما كانت تتحدث معي، رأيتها طفلة صغيرة أريد أن أضعها على صدري لتغفو وتنام، لحظات واستسلمت فعلا لنوم عميق بعد أن قالت لي:

–عذرًا، أنا لم أنم ليلة أمس وأشعر بعد الأكل بالنعاس.

أومأت لها برأسي مبتسمًا ثم أدرت رأسي تجاه النافذة التي على يساري كي لا تشعر بالحرج.

سرحت عيناي في السحب البيضاء والرمادية التي تحيط بالطائرة، خالجتني مشاعر لا حصر لها، كل مشاعري متناقضة، لا رابط بينها، شعور غامر بالسخط على زوجتي، ما لبث أن تحول إلى عطف يحاول أن يجد الأعذار لها كي أقدر على لقائها بعد عامين من الغياب.

براءة فاطمة يقابلها نهم فج، يريد أن يفترس أنوثتها ويستنشق هذا العبير المثير الذي يفوح من جسدها الممشوق.

إعجاب بزوجها وبثقته في نفسه وفي زوجته، تحول تدريجيًّا إلى غيرة تجاه رجل يملك مثل تلك المرأة بارعة الجمال، امرأة يشتهيها كل رجال العالم، ورغم ذلك فهو لا يجد في نفسه ولو قليلًا من الشك أو الغيرة ، هو قادر على أن يمارس هذا القدر من الرقي والتحضر، فلا يجد غضاضة حين يسألني الصبر على حديثها!

أي صبر يطلبه هذا الرجل على حديث كله السحر والأنوثة! يخرج من بين شفتين أشهى من العسل المصفى! يُسكر ويبعث في

النفس النشوة والسرور !

ألتفت ناحية اليمين فأجدها نائمة كأبهى ما تكون النساء في نومها، رأسها تميل قليلًا ناحيتي وعلى كتفي بعض خصلات شعره، فأضع يدي برفق على تلك الخصلات لأتحسسها في لذة وأنا أنظر لوجهها الذي تحول في عيني فجأة من وجه طفولي بريء إلى وجه أنثى شرسة، يوقظ داخلي كل رغبة محمومة في تقبيلها والضغط على صدرها الذي ما زال نافرًا وصلبًا رغم زواجها وإنجابها وبالتأكيد إرضاعها لطفلتين!

أتفحص جسدها بعينين تشتهيان الجنس منذ عامين، شوقي للنساء يشعل في جسدي نيران لا أدري كيف أطفئ لظاها فيزيد نهمي فأتخيلها حين أفترسها.

بدأت تعبث في خصلات شعرها وعينيها فأيقنت أنها على وشك الاستيقاظ، فأدرت وجهي سريعًا ناحية النافذة واضعًا جبهتي على زجاجها كي أخفي ملامح وجهي الذي صار أحمر كلون الجمر المتقد، لقد تفجر داخلي بركان أحمق من شدة الشوق إلى تقبيلها وعناقها فأخذ يقذف بحمم اللهفة لتضرب وجهي وتفضحه!

ما إن استدرت حتى وجدت نفسي غير قادر على الصبر، فرجعت بوجهي إليها ثانية لأتفحصها بلذة ونهم، فإذا بها قد استيقظت

وتحاول أن تنثني إلى الوراء رافعة يدها متثائبة، فإذا بصدرها يبرز أمامي كثمرتين غير ناضجتين من المانجو، فكانا كالحجر، وكأن بشرًا لم يلمسهما قط، ولذلك لم تكن في حاجة كي ترتدي صدرية!

أوشكت الرحلة على الانتهاء، وأضيئت علامات ربط الأحزمة استعدادًا للهبوط، وما إن هبطت الطائرة حتى اقتربت منها قائلًا:

"حمد لله على السلامة"، حاولت اغتنام فرصتي الأخيرة، فتنسمت أكبر قدر من عطرها الفواح ورائحة جسدها الشهي، وقيدت هذا الأريج داخل صدري لأستحضره يومًا حين أشتاق للرقة والأنوثة!

أخرجت هاتفي المحمول وقمت بفتحه لأتصل بزوجتي، وفي كل اتصال بها كنت أجد هاتفها مشغولًا فأعاود المحاولة، وأنا غير قادر على أن أصرف عيني بعيدًا عن فاطمة، فكنت أتابعها وهي تحاول إنزال حقائبها من خزانة الحقائب العلوية، عرضت عليها المساعدة لعلي أقترب منها أكثر، فإذا بزوجها يحضر ويشكرني على المساعدة، وعلى أنني تحملت حديثها المتواصل الذي لا ينقطع، لثمها بقبلة رقيقة على شفتيها وضمها إلى صدره برفق وحنان رائعين ثم قال لها سوف نتوجه سريعًا إلى صالة الترانزيت.

خرجت من باب الطائرة وتوجهت إلى الحافلة ومنها إلى صالة الوصول وتسلم الحقائب، وأنا أكرر محاولات الاتصال بزوجتي، كل

مرة أجد هاتفها مشغولًا فألعنها وألعن حظي العاثر مع تلك السيدة التي لا تفقه شيئًا في هذه الدنيا.

أخيرًا أنهت زوجتي المكالمة وسمعت رنين اتصالي على هاتفها، بادرتها بكل حدة

-لماذا كان هاتفك مشغولًا كل هذا الوقت؟

-حمد لله على السلامة يا روحي، كنت بكلم ماما.

-أحاول الاتصال بك منذ نصف ساعة!

-معلش يا حبيبي المهم أنك وصلت بسلامة الله.

-كنتي بتتكلمي مع مين؟

لا أسمع منها ردًا

فأكرر السؤال مرة أخرى

-كنتي بتتكلمي مع مين؟

فيأتيني صوت رنين متقطع هو صوت انقطاع الاتصال!

فريال

حضر سليم أخي إلى بيتنا في الثالثة عصرًا ليصحبني بسيارته إلى مركز التجميل وتجهيز العرائس، كي أتهيأ لزفافي إلى محمود الليلة، جاءت معنا فريدة أختي التوءم وابنتها منى التي حملتها على يدي يوم وضعتها فريدة منذ خمسة عشر عامًا، واعتبرتها ابنتي التي لم ألدها، وكانت منى عينيَّ اللتين أرى بهما.

وصلنا إلى مركز التجميل في الثالثة والنصف، أي قبل الموعد المحدد لي بنصف ساعة، فجلست على مقعد في ركن بعيد من أركان المركز أنتظر السيدة سهير، التي سوف تقوم بعمل المكياج والتجميل وهي دائمًا تأتي في موعدها.

بينما بدأت فريدة ومنى ابنتها في عمل المكياج الخاص بهما، بدأت أنا في التفكير في القادم وأحاول عبثًا أن أجعل كل ذكرياتي المؤلمة خلف ظهري وأطوي صفحاتها للأبد ولكن هيهات!

صالون التجميل وفريدة وابنتها، والسيدتان اللتان تزينَهُما وشعوري بالرهبة من اللقاء الأول بمحمود، وليلة الزفاف أعادوني بغير إرادتي للماضي الذي مرت عليه سبعة عشر عاما، حين كنت عروسًا بكرًا أتزين لليلة زفافي على يحيى زوجي السابق، وقد كانت فريدة كعادتها

قاسمًا مشتركًا لكل ما جرى ويجري في حياتي، شخصيتها القوية وأنانيتها كتبتا مع استسلامي لها كل تفاصيل الماضي!

ما إن أغمضت عينيَّ حتى تحركت الذكريات، وتذكرت يوم أن جاء الحاج عبدالعال إلى أبي ليطلب يد فريدة لابنه يحيى، وقد كنا نعرفهم جيدًا لجيرتهم الطويلة لنا، ونعرف أنهم من أعيان المنصورة وعائلتهم لها تاريخ طويل مع الإقطاع، ولذلك كان أبي مرحبًا بهم ويتمنى هذا النسب، وكذلك والدتي التي كانت دائمًا تزن الأمور بميزان المال، ولكن فريدة لم توافق عليه، رفضت تمامًا الارتباط به فهي تحلم بمواصفات أخرى غير التي يحملها يحيى فرغم أنه خمري اللون، وفارع الطول أسود العينين يملك شعرًا أسود كثيفا وناعما كالحرير، فإن سبب رفضها كان صوته الجهوري الذي دائمًا لا يستطيع أن يخفضه، لتعوده حين يكون في أرضه وبين الفلاحين أن ينادي عليهم، وكذلك كان أفطس الأنف كأنه أنف إفريقي، وزاد من انبعاج أنفه تلك النظارة السوداء الغليظة التي كان يضعها دائمًا على عينيه.

فريدة وبرغم أنها توءمي لكنها استأثرت لنفسها بالجمال كله، فاقتني في كل شيء، شخصيتها قوية وجذابة، تفرض سطوتها على من حولها، سواء مع الصديقات أو الأهل في البيت، لا أحد يجرؤ على طلب المساعدة منها، كانت تلقي كل أعباء البيت على عاتقي وتتفرغ لجمالها وأناقتها.

أوعز والدي إلى أمي وهي التي تملك السطوة والقرار في البيت أن تطلب من فريدة الموافقة كي لا يضيع من أيديهم هذا العريس ميسور الحال، وينعم الجميع بخيرات الريف والهدايا التي جاء يحمل بعضها حين زارنا كأنه يعرف طباع أهل هذا البيت من البخل وحب المال!

حاولت أمي مع فريدة مرارًا، استعطفتها وبكت أمامها لأيام، فلم يجدِ مع فريدة أي شيء، لقد اتخذت قرارها بالرفض، وسمعتُ والدي يهمس لأمي ليلًا قائلًا :

–سوف يضيع هذا الشاب من أيدينا بغباء ابنتك وعنادها، سوف نخسر كل الأطيان والأموال التي لا حصر لها من أجل العريس الوسيم والطبيب الناجح!

ولأن أمي عنيدة لا تعرف الاستسلام، فقد قالت:

–إذا كانت فريدة قد رفضت فنحن لدينا فريال، هي توءمها، صحيح أنها ليست علي القدر نفسه من الجمال، ولكنها حُلوة ومن رحمته علينا أنها مطيعة ومنكسرة!

ما إن سمعت قرارها حتى شعرت بسكين يشق قلبي نصفين، صرخت من فرط الألم صرخة مزقت أحشائي، صرخات قيّدها الخرس والضعف فلا يصل صداها إلى مسامع من يذبحني!

شعرت في تلك اللحظة بأنني أريد أن أمزق وجهي بأظافري أو أن أفقأ عينيَّ لأكون دميمة فيرفضني هذا العريس فأنا أرفض أن أكون تابعًا لفريدة وبديلًا عنها في كل شيء حتى في الزواج!

ذهبت إلى غرفة نومي وكانت فريدة على فراشها غارقة في نوم عميق، وكانت قد تركت المصباح الذي بجوار فراشها مضيئًا، فشعرت بأنني أريد أن أوقظها لأفرغ ما بداخلي من انكسار وضعف، أو أن أسكب على جسدها ماءً يغلي لتكف عن خيلائها والتغني بجمالها الذي يثير غيرتي وأصبح الآن يرسم لي المستقبل!

لكن أصابتني عيونها بالفزع، فعيونها أثناء النوم لا تنطبق تمامًا بل تظل مفتوحة قليلًا لشدة اتساعها، كانت فريدة حتى في نومها جميلة، تحمل من البراءة ما يجعلك تحبها، توجهت إلى فراشي وأنا أخشى الصباح وما يحمله من أخبار وبت أسأل الله أن يقبض روح هذا العريس لأستريح.

–ألف مبروك لعروستنا الجميلة.. نورتي السنتر! يا مدام فريال!

يبدو أن عروستنا سرحانة في عريسها وفي ليلة الدخلة!

كان ذلك صوت مدام سهير، جاءت في موعدها تمامًا، شعرت بها تضع يدها على كتفي بهدوء لكنني لم أسمع شيئًا مما قالت،

فاكتفيت بابتسامة باهتة وكنت أضع ساقًا على ساقٍ فأنزلت ساقي واعتدلت في جلستي ومسحت بكفي على وجهي وأخذت نفسًا عميقًا جدًّا خرج زفيره حارًا ملتهبًا!

–ياه .. كل ده نفس .. حاسبي أحسن أطير!

قالتها مدام سهير وهي تضحك بصوت عالٍ كالبلهاء، ثم أخذتني من يدي إلى كرسي التجميل المقابل للمرآة وهي تقول

–تفضلي اجلسي يا أحلى عروسة!

نظرت إليها وأنا أجلس دون أن أتفوه بكلمة واحدة، واكتفيت بابتسامة متعبة لأعبر عن شكري لرقتها وبدأت تتفحص وجهي من كل زاوية وأمسكت بخصلات من شعري وهي تقول:

–وجهك مجهد جدًّا وبشرتك تحتاج إلى أقنعة مغذية والشعر هو الآخر مجهد وجاف، فأرجوك أحتاجك أن تصبري معي وبعد ساعات قليلة ستكونين أجمل عروس في المنصورة كلها.

–اتفضلي وخدي راحتك.. أنا تحت أمرك.

قلت هذا وعيناي تطوفان بالمكان، توقفت عند وجه فريدة في المرآة، فوجدتها ازدادت بهاءً وجمالًا، وحين نظرت إلى وجه ابنتها شعرت بأن فريدة ذات الثامنة والثلاثين عامًا تبدو الأصغر والأكثر

فتنة، فكيف بي وهي التي كانت دائمًا تثير حفيظتي عندما تتعالى عليَّ بجمالها وتقول:

–نحن توءم، لكنني أخذت الجمال كله ولم أترك لك شيئًا!

نظرت للسيدة سهير وقلت بصوت يتحشرج كأنني أتوسل إليها:

–أنا لم أنم بالأمس وأشعر بالإرهاق، هل أغمض عينيَّ قليلا بغير نوم، لأستشعر السكينة والراحة فقط، وافعلي أنت ما يحلو لكِ؟

–عز الطلب.. خدي راحتك يا حبيبتي.. أنا كده ح أشتغل بمزاج!

رجعت برأسي إلى مسند الرأس بالمقعد، ورجعت معي ذكريات مرت عليها سنوات طويلة، حين حضر يحيى مع والده ووالدته في الموعد، ليعرفوا جواب أبي، لكن أهل البيت جميعًا كانوا في حالة ترقب وقلق، كانت أمي تستأذنهم من حين لآخر لتخرج من المجلس، ثم تنادي على والدي لتسأله كيف يعرضني عليهم بدلًا من فريدة، فيتشاجران ثم يرجع أبي إليهم مرتبكًا ومعتذرًا، ثم يحاول أن يفتح موضوعًا آخر حتى داهمه الحاج عبد العال بسؤاله:

–أين الأستاذة فريدة، نريد أن نرى عروستنا الجميلة؟

هربت الكلمات من شفاه أبي وتلعثم لسانه، فلم يعد قادرًا على الكلام فحاولت أمي أن تسعفه فقالت

-عروستنا جايه حالًا !

وعندما سمع أبي ما قالته استشعر الحرج لكونه لم يرد فحاول أن يستجمع كل قواه ثم قال:

-حاج عبدالعال أنت تعرف مقدار حبي لكم وتقديري للجيرة، ويحيى مثل سليم ابني تمامًا ويعلم الله أنني حاولت مع فريدة ولكن كل شيء نصيب، فريدة تريد أن تستكمل دراستها العليا في الجامعة.

فقاطع الحاج عبدالعال والدي وفاجأه حين قال له وبدون تفكير:

-تمام!

"أنا دخلت بيتك ومش طالع غير لما أناسبك، أنا عارف أصلكم الطيب وتربية بناتكم المحترمة وعشان كده ياسيدي أنا مصمم أناسبكم، فريدة زي فريال وفريال زي فريدة، لو الأستاذة فريدة مبتفكرش في الجواز يبقي النصيب مع فريال، إيه رأيك نطلب إيد بنتنا فريال"؟

نزلت كلمات الرجل على والدي كالماء البارد، وسمعتها فأخذت أضرب رأسي بيدي وأنا أسترق السمع من الغرفة المجاورة، وفريدة

تحاول أن تصرف ناظريها بعيدًا عني، وتصطنع أنها منشغلة بأي شيء غير أن تهتم بالكارثة التي كانت سببًا فيها، وغاب عني ما كان من رد أبي عليه لكنني سمعت أمي تناديني ثم استأذنتهم قائلة :

-حروح أشوف العروسة وأجيبها حالًا.

دخلت أمي وهي تحاول أن تخفي فرحتها لاحتفاظها بهذا العريس الميسور صاحب الأطيان، وتجاهلت فريدة تمامًا ثم قالت لي:

-إنت لسة مجهزتيش؟

-أجهز لإيه؟

-أبو يحيى جاي طالب إيدك لابنه!

-هو جاي لفريدة وطالب إيد فريده مش إيدي أنا!

-وغير رأيه يا ستي وجاي طالب إيدك دلوقت!

-أنا مش حتجوزه ومش عايزاه.. أنا مش حاخد اللي رفضته فريدة.

-أخرسي وتعالي أعدل لك شكلك، حتتجوزيه ورجلك فوق رقبتك.

وأحضرت أمي المشط وقامت بتسوية شعري وثيابي، ووضعت بعضًا من أحمر الشفاه على شفتي كأنني دمية! وكم تعودت أمي أن تتعامل معي بهذا الشكل، ثم أخذتني من يدي إلى حيث يجلسون فإذا بالحاج عبد العال ينهض قائلًا :

-أهلًا أهلًا بعروستنا.. يا ألف مبروك.. تعالي هنا جنب حماتك الست أم يحيى، دي بتموت فيكي.

جلست بجوارها ولم أنطق أبدا، كنت أرى الجميع كأنهم خيالات تتحرك ولا أسمع لهم صوتًا حتى رأيت الحاجة أم يحيى تمسك بيدي وتقبلني، ووقف الجميع يسلمون عليَّ، وسمعت الحاج عبد العال وهو يقول:

-على بركة الله وقراءة الفاتحة والشبكة الأسبوع المقبل بإذن الله!

لم أفهم شيئًا ولم أستطع احتواء الموقف، كنت تائهة، أنكر تلك الوجوه التي حولي، فقدت الإحساس بكل شيء، حتى رجع والدي بعد أن ودعهم وقال لي وعيناه لا تنظران إليَّ:

-ألف مبروك يا فريال عريسك لقطة!

لم أجبه وعدوت إلى غرفتي وأغلقت بابها واستلقيت على فراشي، لا أشعر بأي شيء، لم أحاول البكاء، كنت واجمة، أنظر إلى سقف

الغرفة في صمت، لا أتحرك كأنني صنم من حجر!

لم يمر وقت طويل حتى دخلت أمي إلى غرفتي، وهي غاية في السعادة ثم جلست بجواري، لأول مرة تنحني أمي وتقبلني على جبهتي، ثم أخذت تهمس في أذني وتمدح يحيى وتعدد محاسنه، وبأنه وحيد أبويه، هم أهل ثراء وجاه ويملكون ما لا يحصى من الأموال والماشية، ومئات الأفدنة. وأخيرًا هو شاب فارع الطول أي أنه ليس به عيب واحد!

كنت أصرف ناظري بعيدًا عنها ولكن حين سمعتها تقول :

–إن فريدة لا تعرف مصلحتها، سوف تكونين أفضل منها، كل هذا العز والجاه غدًا سيصبح تحت أقدامك، تتصرفين فيه كما يحلو لك، ستصبحين أنت الملكة، سوف تأتي فريدة لتسألك بعضًا من خيراتك.

شعرت بأن البهجة قد بدأت تتسرب إلى قلبي، ضحك ثغري ودمعت عيناي في آن، شعور بقرب الانتصار على فريدة، أخيرًا سأتفوق عليها!

–إيه رأيك بقي.. كريمات الأساس مناسبة تمامًا للون بشرتك، شوفي الجمال في المرآة.

كانت مدام سهير تحدثني وهي تمسك بمرآة صغيرة بيدها، وتقربها إلى وجهي كي أستطيع أن أرى التفاصيل بوضوح فشعرت بالسعادة لأن وجهي قد صغُر أكثر من عشر سنوات، لأول وهلة أحسست بأنني قريبة الشبه بفريدة!

أنا لا أكرهها ولكن أكره تصرفاتها وتسلطها، أكره تعاليها عليَّ، وزعمها بأنها الملكة فريدة، وما أنا غير وصيفتها وخادمة لجلالتها!

–أيه رأيك نقوم نلبس الفستان دلوقتي؟

رفعت رأسي لمدام سهير وأنا أقول لها حاضر. وما إن نهضتُ حتى وجدت منى ابنتي الحبيبة تأتي إليَّ وهي تحمل فستان السهرة الذي طلبت منها أن تختاره لي، فكان رائعًا بلونه الزهري الذي أعشقه.

–يلا يا خالتو تعالى أساعدك في تغير الفستان.

سارت منى وسرت معها إلى غرفة تغيير الملابس، وأنا في عالم آخر، أنا أخشى أن أرتدي ثوب الزفاف فيطيح ألم الماضي بكل ما أحمل من أمل في حياة جديدة مقبلة، وما إن أغلقت منى الباب علينا حتى عانقتني وأهدتني قبلة على جبيني، شعرت في عناقها بدفء قلبها ونبضاته التي تحمل الحب، ثم قالت لي بهمس:

–أنا عارفه يا طنط إنك قلقانه بس متخليش القلق يضيع فرحتك

في أجمل يوم في حياتك.

قبلتها وقمت بخلع ثيابي، وساعدتني في ارتداء ثوب السهرة، الذي فضلت ألّا يكون ثوب زفاف بلونه الأبيض التقليدي، كي لا أستشعر الحرج، فتلك هي الزيجة الثانية والناس في الأقاليم ينكرن على الزوجة الثانية أن ترتدي ثوب زفاف، برغم أنني لسوء حظي لم أرتده يوم زفافي الأول أيضًا!

ما إن انتهيت من ارتداء الفستان، حتى عدت إلى مكاني أمام المرآة مرة أخرى، وكانت مدام سهير تنتظرني وهي تحتسي القهوة وتدخن سيجارتها الرفيعة جدًا فقالت لي:

–حشتغل دلوقي في شعرك، واختاري أفضل تسريحة تليق على وجهك، وأخرجت بعض الصور التي تحمل أشكالًا مختلفة لتسريحات الشعر فقلت لها:

–أنت الخير والبركة اختاري أنت ما يليق بوجهي.

فضحكت بصوت عالٍ وهي ترجع إلى الخلف، الضحكات البلهاء نفسها، ثم قالت:

–عروستنا قلقانة ومرتبكة.. ولا يهمك يا جميل دي شكة دبوس!

أرسلت لها ابتسامة باردة وكأنني أرجوها أن تصمت، وتبدأ في العمل، فشعرت بما أريده، وألقت سيجارتها على الأرض وأطفأتها بحذائها وبدأت تقلب في الصور.

رجعت بظهري للخلف ووضعت رأسي على مسند الرأس مرة أخرى، لقد أجهدني التفكير فلم أعد قادرة على حمل رأسي، أغمضت عيني وبسرعة بدون أن أدري، رأيت يحيى وهو يتحدث مع أبي ويقول إنه في عجلة من أمره، ويريد أن يتمم إجراءات الزواج في أقرب وقت ممكن، ولأن عمه قد توفي منذ شهرين فمن الصعب أن نقيم الأفراح، لذلك سيكتفي باحتفال عائلي، ندعو إليه عددًا محدودًا من الأقارب، وطلب أن يكون عقد القران والزفاف في بيتنا!

شعرت بالصدمة من كلام يحيى الذي عرفت فيما بعد أنه كان يريد ذلك لبخل والده، ولأن أمي كانت أكثر منهما حرصًا على المال، فقد رحبت بالفكرة مع تأكيدها بأن يتولى هو شراء قطع الحلوى والمشروبات!

وافق الجميع وتم الزفاف سريعًا إلى غرفة صغيرة في بيت الحاج عبد العال، كان الزفاف ليلة خميس كما هو معتاد في بلادنا، زفافًا صامتًا كئيبًا، لكني رضيت بما كتبه الله لي.

ما أبشع الزواج والإقامة مع أهل الزوج، كان فض غشاء بكارتي

على طريقتهم أمرًا مهينًا والإعلان عنه وعن شرف العروسة يوم " الصباحية " أكثر مهانة، فلقد حضر كل أعمام وأخوال يحيى وزوجاتهم، حضرت كل الفلاحات اللاتي تخدمن في أرضهم وتعالت الزغاريد وتم إطلاق أعيرة نارية في الهواء ابتهاجًا بأنني شريفة وحافظت على بكارتي!

لم يمر يومان على زواجي حتى طلبت مني أم يحيى أن أترك الكسل وأبدأ في تجهيز البيت، ومساعدة الخادمة سعدية، لم أجرؤ على الرفض، وبدأت العمل، ومع كل صباح جديد أكتشف مدى البخل الذي يأكلهم وشدة حرصهم على المال!

كل ذلك كان هينًا رغم قسوته على النفس، مصيبتي كانت في يحيى نفسه، كان يحيى مصابًا بالعنة، غير قادر على معاشرة النساء أبدًا، ويعرف مصيبته ولم يصارحني بها، وأيقنت مع المعاشرة أنه داء لا شفاء منه، وكانت الطامة الكبرى حين أكد الأطباء أنه عقيم، وأنني سوف أعيش معه دون أطفال.

كانت حياتي مع يحيى باردة لا طعم لها، يخيم عليها الظل الأسود للكآبة والحزن وقلة حيلتي، حتى توفِّي والده، فبدأت أشعر بأنني أكثر قوة وشجاعة، أعلنت العصيان، أصبحت أتطاول عليه، أصفه بالعقيم أمام أقاربي، صحيح أنني لم أخبر أحدًا منهم أنه عنيّن، لكني كنت أخرج ما بداخلي من سخط وكبت واشتياق للحب، بأن أتعمد

إهانته وأعيّره بعقمه أمام الجميع فيصمت، يحني رأسه خجلًا.. فأشعر بالانتصار، وكلما حاول أن يحتويني أنتشي أكثر!

مرت السنوات طويلة لا راحة فيها ولا سعادة، شجار وضجر، بخل وتقتير، حتى جاء يوم شعر فيه يحيى بالتعب والإجهاد في عمله، فرجع إلى البيت، طلب مني أن أساعده في تغيير ثيابه، استلقي على الفراش غير قادر علي الحركة، فأصرت أمه على إحضار الطبيب، الذي أمره بعمل بعض التحاليل ورسم لنبضات القلب في الصباح ثم يحملها مباشرة إليه.

ذهب يحيى في الصباح لعمل ما طُلبَ منه بمفرده، ورجع أكثر إرهاقًا وأشد تعبًا، فتأكدت أن الفحوصات ليست مطمئنَة لكني لم أسأله، واكتفيت بتأكيده لنا بأنه سليم ولا يعاني شيئًا، وبالعلاج بدأ يسترجع قوته ونشاطه تدريجيًا، وتغيرت طباعه تمامًا، أخذ ينفق ببذخ وإسراف، صحيح أنه سخاء على نفسه فقط، لكنه تغير، كان يداوم على شراء الملابس المستوردة والروائح الفرنسية، اشترى سيارة فاخرة بعد أن كان يرفض أن يشتريها من قبل، جاءني يومًا مبتهجًا وطلب مني أن أستعد للانتقال إلى بيت جديد اشتراه وجهزه تمامًا ليكون مفاجأة لنا جميعا!

وانتقلنا إلى البيت الجديد في أرقى أحياء المنصورة، وانتقلت والدته معنا وكانت تشعر بالحزن لإسراف ابنها وتبديده لأمواله لكنها لم تصرح بهذا واكتفت بنظرات الحسرة!

سكنّا البيت الجديد وسكنت المشاكل معنا، أصبحت أكثر قسوة عليه حتى نفد صبره، بدأ يسُبُني ويتلفظ بكلمات لم أعتد يومًا على سماعها منه، أعلن بكل حزم أن لو كنت أريد الطلاق فهذا أمر ما أيسره وما عليَّ إلّا أن أطلبه.

إن الرجوع إلى أمي أشد قسوة من عِنَّة يحيى، والعيش في ظل بخلها أصعب عشرات المرات من بخل أمه، حاولت أن أصبر وأغتنم الفرصة وأستمتع بأمواله التي بدأ يخرجها من خزائنه وينفقها على نفسه، ثم لاحظت أنه يقضي أوقاتًا طويله في شرفة البيت وعلى سطحه، واكتشفت السبب، إنها جارتنا!

امرأة مطلقة تسكن البيت المقابل لنا، وعلى النقيض من كل الرجال، تعمد يحيى أن ينكشف أمره ويظهر خيانته، ليبرهن على أنه مرغوب فيه وتعشقه النساء!

لم أحتمل هذا الوضع، شعرت بالإهانة والحقد عليه، فقد صبرت على برودته وعنته خمسة عشر عامًا ثم ها هو الآن يحاول أن يخون ويجري خلف المطلقات، متقمصًا دور العربيد وزير النساء!

طلبت الطلاق فوافق بأسرع مما تخيلت، وانتهى كل شيء في لحظات كما تزوجته في لحظات، ورجعت إلى بيت أبي أو بالأحرى بيت أمي، التي بدأت تصب عليَّ لعناتها من أول يوم وتتهمني بأنني

كفرت بالنعمة التي وهبها الله لي وزاد سخطها عليَّ حين طلقني واستلمت وثيقة الطلاق.

-مبروك يا ستي!

سمعت كلمة مبروك من مدام سهير فانتفض جسدي، وخشيت أن تكون ذكرياتي ذات أنين يسمعها مَن حولي، ونظرت إليها وأنا أرتجف من الخوف فوضعت يدها على خدي بلطف كأنها تهدئ من روعي ثم قالت

-انتهينا من تسريحة الشعر ولم يعد أمامنا غير وضع المكياج على أجمل وجه في الدنيا.

كانت نظرتي لها هذه المرة هي البلهاء، ولذلك تعجبت مدام سهير وقالت لي:

-لا يا عروسة.. إجمدي كده.. مش عايزين العريس يفكر إن إحنا مش قده.. لا.. إحنا جامدين قوي!

ثم عادت لضحكاتها البلهاء كي تنهي حديثها كما تعودت فلم أنبس ببنت شفه!

وعدت للوراء ثانية لأسترخي بعد أن هدني الفزع ثم أغمضت

عينيَّ وقلت لها :

–هل رأسي في هذا الوضع تناسبك كي تضعي مساحيق التجميل؟

–تمام، خليكي كده.

لم تأت فريدة يومًا لتطلب منى شيئًا، ولم أسمع يومًا أنها اشتكت من زوجها الطبيب الناجح، كانت تعيش في سعادة وتناغم فريد مع زوجها، أنا وحدي الذي عانيت ومازلت.

كان جفاء أمي وغلظتها وسوء عشرتها أكبر من طاقتي، فحاولت أن أتكلم مع أم يحيى أكثر من مرة كي أرجع، وتطلب من يحيى أن يردني إلى عصمته قبل أن تنقضي العدة، لكنها كانت في كل مرة تُسْمِعُني أقسي الكلمات وأعنفها، وفي آخر حوار بيننا قالت لي:

–نحن لا نرحب بك أبدًا، لقد انتهى كل شيء بينكما، الحمدلله أنه لا يوجد أطفال، وهو لا يرغبك الآن ولا يريدك زوجة، إذا كان لديك قليل من كبرياء وبعض من كرامة فلا تحاولي الاتصال بنا، ويكفي أنه لا يرد على مكالماتك!

شعرت بعدها فعلًا بأن لا كرامة لي أو قيمة في هذا العالم، فتمنيت الموت، لكنه لم يأت، تعودت دائمًا أن كل ما أتمناه يهرب مني

ولا يأتي أبدًا !

جاءني أخي سليم حاملًا خبر زواج يحيى من جارته المطلقة، كان ذلك يوم انتهاء عدتي، عندها تأكدت أن الرجوع إليه صار مستحيلًا، وما إن علمت أمي بالخبر حتى رأيتها تنقض عليَّ كالمجنونة تمزق ثيابي وتضربني وهي تصرخ بأعلى صوتها، أنني السبب في ضياع كل شيء، وأن مثلي ليس له إلّا الفقر والفشل!

وحاولت أن أنقذ نفسي من بين يديها وأهرب، فإذا بفريدة أمامي تحاول أن تخلصني منها فتحاملت عليها ثم وجدتني أدفعها بأقصى ما أملك من قوة، وأعدو إلى غرفتي وأغلق الباب عليَّ، مكثت في غرفتي يومين دون طعام أو شراب ولم أخرج منها إلّا عندما طرق سليم الباب عليَّ بكل قوة وهو يصيح:

–فريال.. فريال.. يحيى مات.. يحيى مات يا فريال!

دارت الدنيا حولي، وتأرجح السرير الذي أستلقي عليه في الفراغ وتمايل، وشعرت بأنني سوف أسقط على الأرض!

تحاملت على نفسي لأفتح الباب، وكان صعب المنال لكنني تمكنت من فتحه ثم سقطت على الأرض بجوار أقدام سليم فانحنى ليرفعني فصرخت فيه وأنا أضرب وجهي:

–آخر يوم في العدة كان من يومين يا سليم.. آخر يوم في العدة كان من يومين!

–دا نصيب يا فريال، سمعت أنه أخذ حبوبًا منشطة لكن قلبه مستحملهاش ومات النهارده الفجر .

لقد خسرت كل شيء، خسرت شبابي وبيتي وزوجي، خسرت أن يكون لي أطفال، خسرت كل شيء وغيري فاز بكل شيء!

لقد حصدت زوجته الجديدة كل ما قمت بزراعته في أرضه البور، فازت بالبيت والأرض والأموال والسيارة، ذاقت عنته ليومين فقط وربحت كل شيء، وأنا اكتويت بها العمر كله ولم أنل شيئًا، ضاعت أجمل سنوات عمري لهفًة وحسرًة، ضاعت كبتًا لأحاسيس المرأة وسحقًا لغريزة الأمومة!

لم أفق من حسرتي وبكائي إلّا حين ضربني الخوف من عقاب أمي، حاولت أن أختبئ منها قبل أن تعرف الخبر، لكنها من غرفتها المقابلة قد سمعت كل شيء فسقطت مغشيًّا عليها، هرع سليم إليها، واتكأت أنا بظهري على الحائط، أضرب وجهي ورأسي بكفيَّ وأنا أصرخ :

–ضاع كل شيء وخسرت كل شيء!

-الحمد لله.. ألف مبروك.. يلا يا عروسة أنت كدة جاهزة..العريس وصل ومنتظرك بالسيارة على باب السنتر.

لم أكن لأسمع صوت مدام سهير أبدًا لولا أن منى جاءت وأمسكت بيدي وقالت:

-مش حبوسك عشان المكياج، بس أنت قمر يا طنط ماشاء الله.

كنت في عالم آخر غير الذي يحيط بي، لا أعرف ماذا يخبئ القدر لي، لكنني حاولت أن أتماسك وأقف، تحاملت على ذراع منى، ونظرت حولي لأبحث عن فريدة، وجدتها تنظر في المرآة، تصلح من مكياجها كأنها العروس!

خرجت مدام سهير لتخبر محمود بأنها أنهت عملها، فدخل مبتسمًا وأمسك بيدي وقبل جبهتي قائلًا

-ألف مبروك يا عروسة.

دخلت معه هدى، ابنته الوحيدة من زوجة توفيت منذ خمس سنوات، هدى في العشرين من عمرها، رقيقة، تشبه أباها تمامًا، قبلتني هي الأخرى وقالت:

-ألف مبروك يا ماما.

شعرت بأنها ابنتي، قبلتها فأمسكت بيدي اليمنى وأمسكت منى بيدي الأخرى، خرجت إلى باب مركز التجميل وتأبطت زراع محمود حتي ركبنا السيارة، وتوجهنا إلى بيت أمه، تماما كما حدث منذ سبعة عشر عامًا، أنا ويحيى إلى جواري متجهين إلي بيت أمه في زفاف حزين، اليوم حل محمود مكان يحيى!

محمود الذي جاء يطلب يدي عن طريق زوج فريدة، أتت به لتتخلص من عقدة الذنب تجاهي، عريس شديد الشبه بيحيى، الطول نفسه، الشعر نفسه والنظارة، الأنف نفسه، غير أنه خفيف الظل بشوش، يعيش هو الآخر مع أمه العجوز في شقة صغيرة، وسوف أحل عليهم ضيفة ثم خادمة كما عشت دائما في بيت يحيى!

وصلنا إلى البيت واستقبلتنا والدته علي بابه بالزغاريد والقبلات، وبعد أن قام سليم بأخذ بعض الصور لنا انصرف وودعتني معه منى بأجمل حضن شعرت به في حياتي، أحسست بأن دموعي تريد أن تتحرر من مقلتي، لكنني تماسكت وقبلتها، سلمت على فريدة وقرأت في عينيها رسالة تقول فيها "ها أنا قد كفرت عن ذنبي نحوك بزوج آخر فأرجو أن تسامحيني!"

حتى وإن كان رجلًا يكبرني بعشرين عامًا يا فريدة؟

أختك مازلت بكرًا يا فريدة!

أنا امرأة تتعذب بنيران الرغبة والشهوة منذ سنينن دون أن يطفئ تلك النيران أحد!

أنا لم أذُق يومًا يا فريدة طعم النشوة ولم أنهل من الشهد الذي تنهلين منه كل ساعة!

ودعت فريدة بلطف، رغم أنني تمنيت أن تنصرف مذ حضرت، ودخلت أنا ومحمود إلى غرفتنا التي كانت على حالها منذ زواجه الأول، السرير نفسه الذي نامت وماتت عليه زوجته الأولى، أعرف أنه رقيق الحال، فهو لم يقدم لي مهرًا أو شبكة، اكتفي فقط بخاتم زواج من ذهب، ولأن أمي تمنت الخلاص مني، ومثلها حلمتُ أنا الأخرى بالخلاص منها والهرب إلى أي مكان لا يجمعني بها، فقد وافقت أمي عليه في الحال وخضع أبي لقرارها ووافق عليه!

أحس محمود بارتباكي وإحساسي بالرهبة، فتظاهر بانشغاله في إشعال سيجارته، وأدار لي ظهره وهو يتخفف من ملابسه لعل الهدوء يعود إليَّ، رغم أنني لست بكرًا فإن كل ما بداخلي مازال بكرًا يشتاق إلى الحب والجنس مثل كل فتاة، جسدي الآن ينتفض كالأرض البور، يتوسل إلى الغيث ليهب له الحياة بعد طول جفاف، أنا أتلهف للنشوة وأنتظر الارتواء، أنا أحلم بالأمومة، و الحلم اليوم سيتحقق!

كان وجه محمود يختلف عما كان عليه حين حضر إلى مركز

التجميل، اصبح وجهه أكثر حمرة وانتفاخًا، رأيت يديه ترتعشان قليلًا فأسرع وأطفأ الأنوار، اقترب مني يعانقني ويقبلني، لأول مرة في حياتي أتلهف إلى التقبيل والعناق، خلع عني ثوبي وراح يعزف على جسدي بألحان ظلت سجينة طوال عمرها تنتظر العازف الذي يطلق سراحها، نسيت كل ما عانيته في حياتي وتركت لجسدي العنان كي يرتوي من حب عاش يرجوه سنوات طويلة، لم أكن أستطيع التحكم في جسدي الذي كانت الرعشة تضربه بقوة، وأحسست بصراع داخلي بين الأنثى التي تريد أن ترتوي وبين الأم التي طال شوقها لجنينها، فدعوته بدهاء الأنثى أن يرمي بذرته الأولى لعلها تثمر، ولأنه مثلي يشتاق إلي الحب، بلغ مبلغه من المتعة والنشوة، أسمع أنفاسه اللاهثة وضربات قلبه المتلاحقة فأحسبها ذروة السعادة، حتى توقف فجأة وحاول أن يُخَلِص نفسه من بين قدميَّ، لم يستطع النهوض وسقط على صدري، حاولت أن أهزه وأضرب بكفي على خده، فإذا به يلفظ أنفاسه، تمامًا كما لفظ يحيى أنفاسه على صدر زوجته الثانية.

المرآة

الأستاذ مسعود خريج كلية الآداب جامعة الإسكندرية، رجل تخطى الأربعين منذ سنوات، يعمل مدرسًا لمادة التاريخ في مدرسة النصر الثانوية في حي الأنفوشي، أحد الأحياء الجميلة في مدينة الإسكندرية، تلك المدينة التي تركت أثرًا في نفوس قاطنيها، فجميعهم يشتهرون بخفة الظل والهدوء، وكذلك المبالغة في الأفراح والأتراح.

هكذا كان مسعود في شبابه، سكندريًّا خفيف الظل، كثير المزاح لا يشغل بالَه بشيء، فكان رفاقه يطلقون عليه "مسعود السعيد"، وكانوا يعشقون الجلوس إليه ويبحثون عنه إذا غاب.

لقد كان أكثرهم ثقافة ووسامة ويبدو بينهم كالبدر، شابًا متوسط البنيان، عينيه سوداوين وشعره أسود كالليل البهيم، ناعمًا كالحرير وكثيرًا ما كان يسقط على جبينه فيرفعه بيده فيشعل الغيرة في قلوب أصدقائه وأغلبهم قد أصابهم الصلع مبكرًا.

اليوم هو الحادي والعشرون من مارس، عيد الربيع، عشرون عامًا مرت منذ أن زفت إليه إسراء التي تزوجها وهي ابنة العشرين، وكان مسعود يكبرها بسبع سنين، فتاة طالما تمنى أن يتزوجها حين كان يعيش وحيدًا بعد أن توفى والداه فجأة، مات الأب وتبعته الأم بعد شهر

فقط حزنًا عليه، ولم يتركا له غير بيت قديم يسكنه الصمت والبرودة، فهو وحيد لا يعيش معه أحد فحاول الهروب من الوحدة بالزواج فتقدم لخطبة إسراء ووافق أهلها وتم الزفاف.

مرت تلك السنوات هادئة، إيقاعها سريع ومبهج تارة، وتارة أخرى بطيء ومضطرب لا يعكر صفو لياليها غير تأخر الإنجاب، وكلما مر عام على إسراء دون إنجاب زاد خوفها من تقدم السن وأن يفلت الشباب من بين يديها قبل أن تحقق حلم العمر، وترى الطفل الذي ترجوه، وهي التي عاشت وحيدة مع أهلها دون أشقاء، تمامًا مثل زوجها.

حاول مسعود وإسراء أن يجدا علاجًا لعدم الإنجاب، لكنهم فشلوا برغم تأكيد الأطباء على أنهم أصحاء وليس هناك حائل يقف أمام الإنجاب، لكنها مشيئة الله ولأسباب قد تكون نفسية.

حاول مسعود أن يقاوم الملل والرتابة فكان يلتقي برفاقه في المساء، حتى وجد الجميع ينصرفون عنه تدريجيًّا بعد زواجهم، وأصبحوا مشغولين بزوجاتهم وأبنائهم، وإن خرجوا لمقابلته اصطحب البعض منهم أطفاله معه فآثر البيت على الخروج.

في صباح كل يوم يتوجه مسعود إلى مدرسته، ويعود عند الظهيرة، يأكل ثم ينام بعض الوقت كي يستعد لإعطاء دروس في مادة التاريخ لخمسة من طلابه، وكان هذا العدد يكفيه كي يحسن من دخله

فيستطيع أن يواصل حياته مع زوجته بلا عناء ودون شكوى.

بدأ مسعود يفقد الأمل في الإنجاب، فلم يعد مهتمًا به، ورضي أن يقضي ما تبقى من حياته وحيدًا بلا أطفال كما عاش وحيدًا من قبل، ولذلك لم يجد مبررًا كي يشقى من أجل جمع المال، وكان دائمًا ما يسأل نفسه لماذا أجمعه؟ ولمن سأتركه؟

كان يؤمن بأنه يكفيه من المال ما يجعله يعيش وزوجته حياة كريمة، ويعطي لإسراء بعضًا منه كي تنفقه على منشطات الحمل وبعض الأدوية التي يكتبها الأطباء لها، لعلها تستمتع بحلمها الذي لا يجف، وتُرضي رغبة تسكن في قلبها وعاشت سنوات من أجل تحقيقها، وعلى النقيض منها تمامًا مسعود، كان يراها بلا فائدة ولا طائل منها!

كم هي صبور تلك المرأة وعنيدة، عصر هذا اليوم حاولت إسراء أن تداعبه وهو نائم وأخذت تعبث في خصلات شعره الذي مازال جميلًا وإن كان قد تغير لونه قليلا فأصبح رماديًّا.

وضعت إسراء قبلة ناعمة كلها مكر تحت أذنه، وأقتربت لتشم أنفاسه التي كانت تشتاق إليها فشعر بدفء أنفاسها فاستيقظ وابتسم لها ابتسامة باهتة، ثم حاول أن يتكيء على كلتا يديه كي يجلس وهو يسألها:

-كم الساعة الآن؟

أجابته وهي تلقي بصدرها على صدره تحاول أن تحتضنه

-الساعة الخامسة والنصف.

حاول أن يدفعها برفق ليعتدل في جلسته على الفراش وقال:

-يجب أن أنهض وأستعد للقاء الطلبة، فالمجموعة على وشك الوصول ثم نرى بعد ذلك ماذا تريدين!

لم يكن مسعود اليوم على ما يرام، ليس اليوم فقط، بل منذ أيام، منذ شهور، بل منذ أعوام!

إنه يشعر بالإحباط المزمن، ولا يرغب في جماع زوجته منذ أيام طويلة، كثيرًا ما كان يهرب من هذا اللقاء بالسهر خارج البيت حتي يتأكد من أنها نامت.

لفت ذلك انتباه إسراء، وشعرت بأن الليل لا يجمعها مع مسعود، فقررت أن تظفر به حين يستلقي على فراشه وقت العصر، لعلها تنجح في محاولاتها وتدفعه كي يعاود الحرث ويضع بذرته، لكن محاولتها باءت بالفشل هذه المرة أيضًا، حين جاءها صوت جرس الباب وحضور الطلاب.

لا تزال إسراء على فراشها مستلقية على ظهرها، تفكر في كل ما يدور حولها في هذا البيت، وفي الصمت الذي يخيم عليه بغرفاته الثلاث الرطبة، بألوان حوائطه الباهته والكئيبة، لقد سئم البيت منهما وسئما منه، كل شيء على حالته يتكرر في رتابة، لا شيء يقتل هذا الملل، حتي الطلاب لم يتغيروا، ثلاث سنوات وهم يتابعون دروسهم مع الأستاذ مسعود حتى وصلوا إلى الصف الثالث الثانوي.

وفجأة وعلى غير عادتها خرجت إسراء من غرفتها متجهة إلى غرفة الدرس القريبة من باب المنزل ونادت على مسعود من خلف ستار:

-أستاذ مسعود.. أستاذ مسعود

يتعجب مسعود وينتفض واقفًا ويقول للطلبة:

-ثواني يا أولاد ح شوف فيه إيه!

يدخل إليها قلقًا ويسألها:

-خير يا إسراء طمنيني فيه حاجة؟

تتلعثم وتحاول أن تداري الخجل الذي لون بشرتها البيضاء بحمرة جميلة وتقول:

–أبدًا يا مسعود ولكن هناك خبرًا قرأته على الإنترنت يقول إن هناك طبيبًا شهيرًا لعلاج تأخر الإنجاب وهناك من يشيد ببراعته ويشير إلى النتائج المبهرة التي حققها مع المرضى.

يحرك مسعود رأسه يمينًا ويسارًا متظاهرًا بالحلم والسكينة، ويقبلها على جبهتها وهو يدفعها بلطف للخلف ويحاول أن يكتم صوته حتى لا يسمعه أحد من طلابه ويقول لها:

–طيب.. جميل.. وماذا بعد؟

يزداد خجلها ولكنها تستجمع كل طاقتها كي تجيبه، فهي على حق، ولا زال عندها أمل في أن تتجب وتسأله:

–اخرج للأولاد وأذن لهم بالانصراف وتعال لنحاول أن نسترجع أجمل ذكرى، فاليوم هو عيد زواجنا أم أنك قد نسيته؟

يسمع تلك الكلمات ويرجع إلى الخلف وكأنه لم يرد على خاطره أبدًا أن اليوم هو عيد زواجهما.. وكم عدد السنوات التي مرت فكل السنوات تشبه بعضها، عشر سنوات كعشرين سنة كل السنين مرت عجاف!

لم يجد أمامه إلّا أن يقول لها كما تعوّد:

-حاضر.. حاضر يا روحي!

فتباغته بقولها وهي تخفي خجلها خلف ابتسامة مرتعشة:

-اجعل الطلبة ينصرفون ثم ادخل الحمام كي تحلق ذقنك وتعال كي نرى ما يجب عليك أن تفعله فيبدو لي أنك قد نسيت أشياء كثيرة من تاريخك القديم!

يجيبها وهو يشعر بالاستهجان والحيرة:

-حاضر!

يعود مسعود للطلبة محاولًا أن يرسم على وجهه الهدوء، ويقول وهو يلملم الأوراق والأقلام التي أمامه آسف يا أولاد لنكمل بقية الدرس غدًا فالآن لديّ أمر مهم وعليّ أن أذهب لإتمامه.

ويذهب ليفتح الباب لهم وحين يغلقه يلقي بظهره عليه ويرفع ناظريه إلى سقف الصالة الذي كان حين تزوج ناصع البياض فما باله اليوم صار رماديًّا تضربه بعض البقع السوداء الكبيرة بفعل الرطوبة، فشعر بأنه يتطلع إلى سماء ملبدة بالغيوم.. تبعث على الكآبة!

-ادخل يا مسعود واحلق ذقنك واستحم

كان ذلك صوت إسراء يأتيه من غرفة النوم فيجيبها بكلمة قد سئم من تكرارها

-حاضر؛ ثم يخاطب نفسه متعجبا: يا ربي؛ ماهذا الإصرار الغريب من تلك المرأة على لقاء غير مثمر كهذا؟

وللمرة الثانية يأتيه صوتها وكأنها تسمع حواره مع نفسه، فتقول بأنوثة امرأة تريد أن تبوح بكل أسرارها:

-يقولون إن هذا الطبيب بارع وماهر جدًّا في تخصصه، وهو أفضل طبيب لعلاج تأخر الإنجاب والعقم في مصر، تعال كي نحاول أن نخفف قليلًا من مهمته التي سنلقي بها على عاتقة.

يسمع كلماتها وهو يطأطئ هامته لأسفل، ناظرا إلى خطوات أقدامه المنكسرة، ويتجه إلى الحمام ليخلع ملابسه ويستعد لحلاقة ذقنه كما طلبت منه كأنه جندي يستمع لأوامر قائده.

يتطلع مسعود إلى المرآة، إنه ولأول مرة منذ اسبوعين ينظر إلى وجهه في المرآة!

فور أن يتطلع إلى صورته فيها يصدمه الشعر الأبيض الذي كسى وجهه، اللون الرمادي كاد يطيح بسواد شعره فيسأل نفسه : ما هذا؟

أضاء المصباح الذي يعلو المرآة واقترب منها أكثر حتى كاد يصطدم بها!

تحسس ملامح وجهه المجهد بيديه كأنه يتفحص شيئًا غريبًا لم يره من قبل، يفتح عينيه على أقصى ما يستطيع لعله يرى شيئًا ينال رضاه في المرآة، يضع يديه على شفتيه كأنه لا يريد أن يخرج هذا الصوت الذي انفجر داخل صدره، إنه يريد أن يصرخ فيسمع صرخاته الكون كله:

-هذا ليس أنا.. إنه إنسان غيري.. لست هكذا.. ماذا أصابني؟ أنا بريء من كل تلك التجاعيد ومن هذا الشعر الرمادي اللعين!

لأول مرة يشعر بأن الزمن قد وضع بصماته الخبيثة على كل حواسه وأنه كبر، أصبح فجأة عجوزًا دون أن يدري، كاد مسعود يضرب المرآة لعله يخرج من هذا الكابوس المزعج، لولا خوفه من إسراء فمازال يريد أن يكون أمامها هذا الرجل العفي القادر على وضع البذور وجني الثمار.

يخرج من الحمام متجها إلى إسراء في غرفة نومها، يجدها قد تزينت بكل جميل لديها مما زاد سخطه وغضبه، وهي تنظر إليه ولا تستطيع سؤاله فلقد أخافتها تلك الملامح الغاضبة على وجهه، يتمتم بكلمات غير مفهومة وهو يرتدي ثيابه متهيئًا للخروج ويحدثها دون أن

ينظر لها:

-أنا خارج لبعض الوقت وسوف أعود بعد ساعتين.

لا تستطيع إسراء الرد سوى بكلمة طالما سمعتها منه ولم تقلها من قبل:

-حاضر!

قالتها بعد أن استودعت في حروف كلمة حاضر كل معاني الهزيمة والانكسار والخيبة!

يخرج مسعود ويتركها بزينتها وأنوثتها وثورتها كالأرض التي تشققت وتهيئت لنزول الغيث كي تخرج مافيها من خيرات وكنوز، لكن كل ما في داخلها ظل مدفونا لم يخرج، كأن السماء قد أبت أن ترويها فلم تستسلم. وفور خروج مسعود من البيت نظرت إلى خزانة ملابسها، فتحتها وأخرجت فستان عرسها الذي لم يخرج منذ عشرين عامًا، أزاحت الغطاء عن الفستان ورفعته بكلتا يديها واتجهت ناحية المرآة، لا تزال جميلة، قوامها المتناسق كما هو يحتفظ بكل أسراره، تحتضن الفستان بيديها ثم تشده على صدرها، نهداها يصران على الصمود، كأنهما لا يزالان بكرًا وكأنها لم تتزوج قط!

تقترب من المرآة أكثر وتحدق في عينيها فتنتشي حين تراهما

زاهيتين، ترسلان بريقًا ينم عن أنثى ظَمأى تشتهي اللقاء وتنتظره كي تطلق العنان لكل ما يتأوه ويشكو داخلها من شوق لأنوثة وحنين لأمومة.

كل ما بها من أحاسيس تريد أن تبدع وشبقها الذي يعاني القيد أعلن الليلة العصيان ونبض الأمومة كاد يُسمع الكون من حولها!

ارتدت فستان عرسها وتزينت، فبدت كأحلى ما تكون، ثم ذهبت إلى صورة زفافها وأطالت النظر إليها كأنها تعقد مقارنة بين صورتها الآن وبين صورتها منذ عشرين عامًا، ولأنها تعرف النتيجة وتراها بعينيها أطلقت صرخة سعادة وهي تقفز لأعلى تريد أن تلمس السماء بيديها ثم تدور حول نفسها بذراعين مبسوطتين وهي تعزف بفمها موسيقى عشق الحياة وقدوم موسم الربيع.

لم تزل إسراء على حالتها هذه حتى سمعت صوت جرس الباب وكانت قريبة منه كأنها تنتظر تلك اللحظة التي تفتح فيها الباب وتستقبل مسعود، عروس بكر لم تذق يومًا طعم الحب والليل والقبلات، وما إن

فتحت الباب حتى رأى مسعود تلك العروس الفاتنة، لم يصدق عينيه وشك أنه يقف على باب بيت آخر غير بيته، وأن التي أمامه زوجة أخرى غير إسراء، عروس تستقبله بجمال هادئ وبثوب زفافها،

فكاد يفقد عقله!

فبرغم أن إسراء دائمًا جميلة فإنها بدت في إشراقتها هذه مختلفة تمامًا، فبدت له في ثوب زفافها عروسًا بكرًا تبعث الخجل والحياء، ممزوجًا بخبرات زواج دام سنوات، وتشرق بجسد يضخ في حواسه رائحة العشق يُنبئه عن لهيب اللقاء ويدعوه للتذوق، ورحم باتت تتضرع إلى الله أن ينفخ فيها من روحه كي تثمر مع أول نسمات الربيع .

رأى مسعود إسراء كأسًا عامرة بألذ خمر في الوجود، كأسا وجب أن يفرغها في جوفه ليطفئ بركانا تأجج داخله فجأة، فألقى ما يحمله في يده على الأرض واحتضنها كما لم يحتضنها من قبل، رفعها عن الأرض وأخذ يدور بها ويدور، فكانا كفراشة واحدة تدور حول الضياء، ولم يتوقف عن الدوران إلّا ليضع على ثغرها قبلة لم تذق مثل حلاوتها من قبل، فتضغط بصدرها على جسده لتدفعه إلى الحائط وتأخذ منه قبلة أخرى لعلها تطفئ ما قد أشعله فيها من رغبة وشوق وهي تغمض عينيها كي تفوز بالحلم والحقيقة معًا فتنهل من رحيق الحياة وترتشف عسلها الذي جادت به فجأة، ثم تضع سبابتها على شفتيه وتسأله

-أنا حلوة؟

يبتسم ثغره منتشيًّا ثم يقبل إصبعها ويقول

–أحلى من القمر وأرق من الياسمين وأشهى من العسل!

–كل هذا بفعل ثوب الزفاف؟

–ثوب الزفاف تاريخ وثورة جمالك هي التي أحيته!

–بدأ التاريخ يتحرك داخلك!

وتضحك بأنوثتها التي تفجرت ثم تحتضنه وهي تهمس في أذنه

–هل ستجعل التاريخ يحكي أم ستترك العنان للثورة أن تأمر وتغير المستقبل؟

–إذا جاءت الثورة لا بد أن يستجيب التاريخ وقد قلتِ إن التاريخ بدأ يتحرك!

يضحك وتضحك فتملأ ضحكاتهما كل أرجاء البيت الذي كان يخيم عليه الحزن منذ سنوات فبدا كل شيء حولهما قد تغير وتلون بالحب والسعادة والربيع!

يحملها مسعود على يديه وهي تلملم أطراف ثوبها الذي مازال يحتفظ بصفاء بياضه وهي تشعر بأنها ملكة متوجة ليس على الأرض من تشبهها، يجلسها مسعود على فراشها الذي كانت قد بدلت غطاءه

بآخر أكثر نعومة وأبهى ألوانًا وعطرته بأجمل عطر لديها ونثرت عليه بعض ما لديها من زهور وورود أينعت مع نسائم الربيع الحالمة.

استلقت إسراء على الفراش فبدت فراشة بيضاء في حديقة غناء تبعث على الحب والأمل والحياة وتستحضر من فرط نشوتها كل آلهة الإخصاب.

الذكريات تعزف من جديد

مرت سنوات طويلة منذ تزوجت وسافرت إلى العمل والإقامة في القاهرة، لم أقض ليلة واحدة في بيت أسرتي الذي تربيت فيه صغيرًا، كنت دائمًا أقضي ساعات النهار معهم ثم أسافر في المساء، اليوم فقط أتيت لأطمئن على والدتي، وأمضي ليلتي معها، علينا أن نتوجه غدًا إلى عيادة الطبيب في الموعد المحدد دون تأخير، فهي تحتاج إلى بعض الفحوصات الطبية في الصباح الباكر.

كل شيء في غرفتي على حاله منذ تركته، أشم رائحتي التي لا تزال تسكن كل ركن فيها، الصور التي على الحوائط لا تزال موجودة، لم تسقط أو تَبلى، ربما بهتت ألوانها قليلًا كما بهتت ألوان الجدران، كيف لا وقد بهتت ذكرياتي!

أكثر من عشرين عامًا مرت، وها أنا أقف في شرفة البيت لأدخن سيجارتي قبل الفجر بسويعات، كأنني كنت بالأمس هنا!

شارعنا الضيق، البيوت التي وهنت وهرمت بفعل السنوات، كل شيء على حالته إلّا شيء واحد، تغير من كان يسكن تلك البيوت، كثيرون منهم رحلوا عن عالمنا، أغلبهم انتقل إلى أحياء أخرى أكثر رقيًّا من هذا الحي التعيس.

هنا أمام شرفتي تمامًا كانت تسكن عواطف وزوجها حمدي اللذان كانا سببًا في أن أقضي أغلب الليالي بلا نوم، كي أستطيع أن أتابع نشاطهما الزائد طوال الليل من خلف ستائر غرفتي، وفي ظلام دامس أخلقه وأنشره داخل الغرفة وأحرص عليه طوال النهار ليطمئنا ألّا أحد في الغرفة، فيطلقا لأنفسهما العنان بلا قيد وتمارس عواطف كل تفاصيل حياتها بحرية فتشجيني.

على اليمين من بيت عواطف يوجد بيت الحاجة كريمة؛ التي كانت تبيع البيض والطيور التي تقوم بتربيتهاعلى سطح دارها منذ أن توفي زوجها تاركًا لها محلًا صغيرًا للبقالة، اعانها على أعباء الحياة حتى تخرجت ابنتها الكبرى في كلية الطب، وتخرجت الصغرى في كلية الصيدلة وتزوجتا، ولا تزال الحاجة كريمة تعيش في بيتها بمفردها، لا أحد يؤنس وحدتها!

على يسار بيت عواطف يوجد بيت من طابق واحد أرضي، خمس غرف وحمام واحد، تسكن كل غرفة عائلة كثيرة العدد، لم يعد هذا البيت موجودًا، صار برجًا سكنيًّا يتكون من خمسة عشر طابقًا، تشغله عشرات الأسر، لا أعرف اسمًا واحدًا لجار منهم، بينما على يمين ويسار بيتنا كان الجيران أكثر تأدبًا ورقيًّا لكنهم للأسف هجروا البيوت وباعوها، فصارت أبراجًا ولم يبق لتلك البوت او الجيران أي أثر أو ذكرى!

أحببت الجلوس في تلك الشرفة، أتابع الأحداث عن كثب، أحداث دائمًا أنا طرفٌ فيها، أسمع وأرى أدق التفاصيل لحياة جيراني، وأجد المتعة في السهر والتلصص والتنصت، لذة وإثارة تروقان لشاب يبحث عن متعة يعيش فيها، حتى وإن كانت بعيدة ولا يمارسها بنفسه.

بدأت ذاكرتي تتحرك الآن وتتذكر كل الأحداث التي عايشتها مع هؤلاء الجيران، تذكرت ما لا يمكن البوح به لأحد، فأغلب ما رأيته وسمعته إنما يصب في خانة الأعراض والشرف!

وللأسف، كثير من جيراننا لا يملكون شرفًا أو أخلاقًا، خصوصًا عواطف، التي تسكن أمام شرفتي، كنت أتابعها في غرفة نومها وفي مطبخها، وأرصدها حين تقضي حاجتها، وكم شاركت زوجها الاستمتاع بها عندما ترضى وتمن عليه بليلة حب!

حمدي.. زوج عواطف، كان شابًا في بداية الثلاثين من عمره، سائق أجرة، يعمل يومًا ويجلس في البيت شهورًا، تتبدل عاطفة زوجته تجاهه بتغير وضعه المادي، تحبه حين يجد عملًا، وتعلن الحرب عليه عندما يصبح عاطلًا، فلا متعة بغير أجر، لهذا كنت أتمنى التوفيق له دائمًا، فإذا رضيت عواطف أبدعت وأشجتني طوال الليل بأحلى الأنين وأعذب الآهات، لكن حمدي كسولٌ وسارقٌ، ما إن يلتحق بعمل جديد حتى يفقده، يطرده صاحبُ السيارة، فهو لص محترف.

أذكر يومًا أنه تلقى ضربًا مبرحًا من صاحب السيارة وأولاده بعد أن علموا من صديق لهما يعمل شيخًا لموقف سيارات الأجرة بأن حمدي قد أخذ أحد الركاب إلى مطار القاهرة.

حين رجع حمدي لم يخبر صاحب السيارة واستولى على الأجرة كلها، فنال ضربًا موجعًا ظل يعاني شدة ألمه أيامًا، كنت أسمعه يتأوه ليلًا ونهارًا، وعواطف وابنته الوحيدة هدى تساعدانه ليبدل نومته على جانبه الأيسر أو الأيمن وهو يصرخ من فرط الألم!

وتأكدت أن حمدي تعافي تمامًا عندما سمعت صوت عواطف يعلو وهي تحذره

–لو ماشيلتش رجلك ولميت إيدك من عليّا، حصوت وألم عليك الناس يا حمدي!

–أنا جيت ناحيتك يا مرة!

حمدي يحاول أن يثيرها، علّه يظفر بها، لم يقربها منذ أسابيع، وهي لا تشتاق له ولا تريده أن يقترب منها!

أيام قليلة وبدأت أرى زائرًا يأتي لحمدي، يجلس معه في شرفة بيته، يدخنان معًا الشيشة، وتجلس عواطف بينهما، تضحك لهذا الصديق الجديد لكنها لا توجه كلامًا لحمدي أبدًا، وإذا وجهت له كلامًا

يكون بغلظة واستخفافٍ به.

لم يعد بيت عواطف كما كان ، يحضر الصديق المشترك كل ليلة ليسهر معهما، وعلى غير عادته، رأيت هذا الصديق يقف وقت أذان الظُهر على ناصية الشارع بصورة تثير الريبة، ورأيت هدى ابنة عواطف تقف في الشرفة وتشير له بإشارات مفهومة، إن والدها مازال في البيت وعليه أن ينصرف الآن ولا يصعد إلى البيت!

شعرت حينها بالدوار ولم أصدق عيني، لأول مرة أرى طفلة في العاشرة من عمرها تقوم بمثل هذا العمل الدنيء لصالح أمها!

بجوار عامود الإنارة الموجود على أول الشارع إنتظر الصديق الخائن، كان نحيفًا جدًا وطويلًا جدًا فلم يجد صعوبة في الاختباء خلف عامود الإنارة، يراقب بحذر بيت حمدي، حتى يشاهده يخرج من باب البيت ويسلك الناحية الأخرى من الشارع، ظل يتابعه حتى اختفى تمامًا، ثم أسرع إلى عواطف، لحظات ونزلت هدى تلك القوادة الصغيرة، جلست على عتبة باب البيت تراقب الطريق، كانت تعمل "ناضورجية" لأمها وعشيقها، خرجت وتركتهما يستمتعان بلقائهما، فإن رأت والدها من بعيد عادت وأخبرتهما!

غريبة تلك الذاكرة التي يملكها الإنسان، الذكريات لا تزال حية ، تبدو أحيانا ساكنة، لا تأكل ولا تشرب، لكنها سرعان ما تفيق من

رقدتها، تطيح بكل الحاضر الذي نحياه وتسيطر على الوجدان تمامًا!

يجتاحني الآن الدوار نفسه والغضب نفسه الذي أصابني حين رأيت هذا المشهد لأول مرة منذ عشرين عامًا!

أشعلت سيجارة لعلها تطفئ نار الغضب الذي أحرق صدري، وأطيل النظر إلى بيت عواطف وشرفتها التي طالما جمعت بينها وبين حمدي، وشعرت بأنني أنظر من خلاله إلى الكون كله، هذا البيت صورة مصغرة لعالمنا الذي نعيش فيه!

ألقيت سيجارتي في الشارع الذي كان حالك الظلام، فسمعت همهمات تتعالى قليلًا، وصوتٌ يأتي من قريب يشي بأن هناك عصبة من الرجال تجلس قُرب بيتنا، أمام بيت عواطف، أيقنت أن سيجارتي سقطت على واحد منهم لست أراه، فقلت بصوت خفيض

-آسف.. أنا آسف!

لم يتفوه أحد بكلمة وظل الهمس بينهم، استرقَ السمع فيبقى الهمس عصيّا على الفهم، والنجوى غير قادر على تفسيرها!

كان حمدي هاربًا من أداء الخدمة العسكرية، وأُلقي القبض عليه في كمين على إحدى الطرق السريعة، وحكم عليه في محكمة عسكرية بالسجن لمدة عام، وبعد أشهر قليلة انتفخت بطن عواطف، وضعت

ابنها عبدالستار بعد مضي عشرة أشهر على سجن حمدي، لم يثر هذا الأمر ريبته ولا ريبة أهله، وأنهى حمدي مدة حبسه عائدًا إلى بيته وعواطف، أهَلَ على الناس حاملًا عبدالستار على يديه، يوزع الشربات على جيرانه فرحًا به وبخروجه من السجن، الجميع يعلم أن هذا الطفل ليس ابنه، لكن أحدًا لم يستهجن الأمر، اكتفى الجميع بتهنئته على الخروج من السجن، شربوا الشربات وداعبوا عبدالستار!

ومرت سنوات وأخبرتني أمي أن حمدي مات، وماتت عواطف، لم يبق في البيت غير ابنتهما هدى التي تزوجت منذ سنوات.

بدأ الهمس أسفل الشرفة يرتفع قليلًا، وسمعت أصوات الرجال في الشارع وهم يحاولون فتح باب البيت الذي يقع أمامنا، يتهامسون أثناء الصعود على درجات السلم، يجتهدون في ألّا يصدر عنهم أي صوت، كأنهم يريدون الانقضاض على الفريسة فجأة.

سمعت أصواتًا تضرب بعنف باب شقة عواطف أو بالأحرى باب شقة ابنتها هدى، ثم تلتها أصوات مكتومة تأتي من غرفة النوم التي كنت أتابعها منذ سنوات، الصوت مختلف هذه المرة، بكاء واستغاثات يشوبها نحيب امرأة ترجو الستر منهم وتتوسل لهم ألّا يفضحوها فهي أم!

أسمع أصوات لكمات على الوجه والبدن، شتائم وسباب بأحط

الألفاظ، وصوت رجل يصرخ من فرط الضرب، والمرأة لا تزال تبكي، تقسم لهم أنه سبب إغوائها.

لحظات واستيقظ الجيران على صرخاتها، الجميع خرجوا إلى الشرفات، يتابعون ما يجري ويسألون بهمس

-أيه إللي بيحصل عند هدى؟

ثوان.. وإذا بهدى وعشيقها يخرجان إلى الشارع، يسيران عاريين كما ولدتهما أمهما، يحيط بهما الرجال، ينادون على الناس ليشاهدوا تلك العاهرة وهي عارية!

الجميع في الشرفات بدأ يضرب كفيه ويحوقل، والنساء تجري إلى الداخل حياءً وخجلًا بينما الرجال يدفعون أطفالهم وبناتهم إلى الداخل حرصًا عليهم وامتعاضًا.

كانت " اللهم اكفنا شر الفضايح" هي دعوة الجيران جميعًا، لحظات وعاد الصمت والسكون إلى الشارع الهادئ، وأنا أنفث دخان سيجارة أخرى جديدة لعلها تطفئ ما بداخلي من غضب!

أحلام بلا أجنحة

ترفع يدها الصغيرة لتلوح بسعادة لتلك الطائرة الورقية التي تحلق في السماء، وتبعث البهجة بألوان الطيف التي تزينت بها، تتابعها بشغف مشوب بالأمل والرجاء وهي تتراقص أمامها بين سحب الصيف الزرقاء الصافية، تحملق في السماء أكثر فتجد عشرات الطائرات تحلق عالية فتسلب عقلها.

تقفز من حين إلى آخر كالعصفور تريد أن تمسك بواحدة لعلها تبلغ هذا الحلم الذي يراودها منذ أن عرفت أن هناك طائرة ورقية تطير في السماء، ولكنها بنت والبنات في قريتنا لا يملكن الطائرات، وكذلك الفقر يقف حائلًا بينها وبين أن تمسك بيدها خيط طائرة بألوان العلم : الأحمر والأبيض والأسود.

باتت تلك الليلة مع الحلم الذي يداعبها بأن تمتلك طائرة لا مثيل لها، لم يتركها الحلم لتنعم بالنوم حتى أيقن أنه سيتحقق، وأن صاحبته عقدت العزم على أن يأتي الغد بعد سويعات وفي يدها طائرة! ما إن أشرقت شمس اليوم الجديد حتى قالت لأمها :

- سوف أصعد إلى سطح البيت لأطعم الطيور وأجمع ما أجده من بيض.

لم تنتظر رد أمها وأسرعت إلى السطح، أمسكت حبوب الذرة وأخذت تبعثرها على الأرض، الدجاج مازال محبوسًا، يصدر أصواتًا تنم عن الجوع فلا تلتفت إليه، إنها تُحلق في السماء، علها ترى طائرتها، بينما الوقت لا يزال مبكرًا وأبناء الحي نائمين.

أحضرت حبلًا قويا، عقدت الحبل حول قطعة صغيرة من الخشب، وأخذت تدرب يدها على الدفع لمسافات طويلة، وكلما أحرزت تقدمًا شعرت بدنو الهدف، وأنها لن تنم ليلتها إلّا وطائرتها الجميلة إلى جوارها، بدأت تعد الخطة وتنصب الكمائن، وتهيأت للصيد الثمين، لم يبق سوى أن تلوح في الأفق أول طائرة، وسرعان ما انخلع قلبها من شدة الفرح، لقد لاحت أمام عينيها أول طائرة تناديها.

ألوانها الزاهية وثباتها في السماء جعل عقلها يطير، تحينت الفرصة الملائمة لتتمكن منها، حتي أصبح الخيط قاب قوسين أو أدنى، ألقت المحداف، في طرفة عين تمكنت من الخيط، أخذت تجذب الخيط محاولة الإمساك بالطائرة، التي تهاوت بالقرب منها، صدمتها المفاجأة، لقد تمزق ورقها، صارت هيكلًا من الغاب وضاعت ألوانها المبهجة!

يدور كل هذا الصراع وهي مختبئة، لا تستطيع رفع رأسها، وصاحب الطائرة مازال يلقي السباب، يتوعد من فعل ذلك بالويل، إنه لم يره، لا يعرفه، يصعد فوق أي شيء مرتفع ليلمحه بلا جدوى.

زحفت على بطنها لتقترب من طائرتها أكثر، تفحصتها وكأنها تمسك بكنز ثمين، أخذت تفكر في إصلاحها، كيف ستهرب من صاحبها، كيف ستهرب من هذا الذي يريد أن يسلبها طائرتها التي انتظرتها منذ أعوام.

حاولت أن تصلح ما تمزق منها، لملمت الأوراق المهلهلة، ألصقتها حتى اقتربت من صورتها الأولى، ثم تسللت إلى الدار وهي تخفيها كي لا يشعر أحد بها أو بطائرتها، وكلما قرع باب الدار أحد أصابها الهلع، إنها تخشى هذا الظالم يكون على الباب ليأخذ طائرتها، لم تنم ليلتها، كانت تفكر كيف سترسل طائرتها إلى السماء لتحلق بجوار السحاب كما اعتادت أن تراها.

مع بزوغ فجر يوم جديد صعدت على أصابع قدميها إلى السطح لتحقق الحلم، لكنها لا تستطيع الجهر به، فتضع الطائرة على الأرض وتتخيل أنها تطير، وكلما مر الوقت زادت سعادتها وألح الحلم عليها ليصير حقيقة!

وفجأة دخلت إلى عالم آخر، لم تعد تشعر بمن حولها، أخذت تقفز لأعلى وطائرتها ترتفع معها، ترخي الخيط للطائرة رويدًا رويدًا والطائرة تسافر بعيدًا وتخترق الفضاء، سعادتها تنطلق مع طائرتها، الحلم العزيز يكتمل الآن ويشق عنان السماء وهي تمسك بخيوطه الحريرية.

لم تكن لتصدق أنها تمسك بكلتا يديها خيط الطائرة، ولا تعرف كيف يحدث كل ما تراه، ضربات قلبها تزداد قوة، مشاعرها تتأرجح بين السعادة

والخوف كلما علت الطائرة وارتفعت.

تمسك أكثر بالخيط، تنكمش وتلتصق بالأرض خشية أن يراها أحد، ثم تغلبها السعادة فتترك الخيط وترسل منه المزيد للطائرة، فترتعش يداها حين تبدو الطائرة أصغر حجمًا، تقبض أكثر على الخيط والطائرة تغازلها بتلك الرقصات الرشيقة، كأنها تحاول أن تداعب عينيها وترسل البهجة لها، فثمة عشق وحب نما بينهما، إنه عشق لا تستطيع البوح به، وفرحة صامته تطلق كل زغاريدها داخل صدرها الصغير فتشعر برجفة السرور تهز كيانها كله وتسلب العقل منها، والطائرة لا ترفق بها وتداعبها برقصاتها يمينًا ويسارًا!

الطائرة تبعد أكثر وتصغر أكثر، وهي تقبض على الخيط، تحدق في الطائرة فتراها تتلاشى فتنظر إلى الخيط في يديها، تحكم قبضتها عليه، لكن الطائرة لا تزال تبعد، أيقنت أن الخيط قد انقطع وترك العنان لطائرتها كي تبعد وتتهاوى، أخذت تقفز على يديها وقدميها، تحاول الإمساك بالخيط، صرخات مكتومة تمزق قلبها المكلوم، تقفز ثانية فتلمح طرف الخيط على مقربة من نهاية السور.

تستحضر كل أحلامها التي تكاد تتلاشى، تقفز قفزة حياة أو موت لتنقذ حلمها من الضياع، يتهاوى الجسد الرقيق ويرتطم بأرض المنور ويدها لا تزال تقبض على ما تبقى من حلم ضاع في غمضة عين.

السماء تغلق الأبواب

تشعر زينب بالاختناق، كأنها تتسلق جبلًا شاهقًا، تتلاحق ضربات قلبها المنهك كعصفور ينتفض تحت المطر، تتحسس صدرها الموجوع بيد وتمسح بالأخرى قطرات عرق بدأت تساقط من جبينها.

تستجمع كل قواها كي تخلع عباءتها السوداء، يرتفع معها جلباب البيت الذي ترتديه تحتها، تظهر سيقانها النحيلة المجهدة، تحاول أن تمسك بالعباءة السوداء فقط، بعزم مبتور تستخلص رأسها من الجلباب، تهوي على الأرض قرب باب شرفتها الموصود، بالكاد تفتحه بقدميها على مصراعيه لتستطع التنفس.

تسمع ابنتها سماح صوت ارتطام مصراعي الباب بالجدران، تهرع إليها وهي تجفف دموعها وتحاول ستر جسدها العاري بلملمة الثياب الممزقة، تجد والدتها ملقاة على الأرض وصوت النحيب المكبوت داخل صدرها يكاد ينفجر، لم تكن قادرة على فتح عينيها أو رفع صوتها باستغاثة ولو ضعيفة، كي يسعفها أحد بأدوية لعلاج السكر والقلب، فأشارت إلى قلبها.

أسرعت سماح بإحضار كوب من الماء ثم رفعت أمها قليلًا لتتكئ على صدرها وتضع في فمها حبة دواء لعلاج مرض السكر وتساعدها

كي تشرب الماء ثم تضع قرصًا آخر تحت لسانها لعلاج القلب .

تلقي سماح برأسها على جبين أمها وهي تحتضنها وتمسح بيدها على جسدها المبلل بالعرق بكل حنان ورفق ثم تجهش بالبكاء .

كم كانت عصيبة تلك الساعات التي مرت على زينب، إنها المرة الأولى التي يتطاول محمود عليها، كم أخفت مصائبه وفضائحه عن أخيه ربيع حتى لا يعنفه أو يضربه، فهو حاد الطباع عنيف .

تتذكر شقاءها وكفاحها على أبنائها منذ توفي زوجها، تفرُّغها لتربية الثلاثة، ولأن معاش زوجها ضئيل لا يفي بكل احتياجاتهم، اضطرت أن تخرج لتبحث عن عمل، حتى نجحت في الالتحاق بمصنع قريب من قريتها لحلج الأقطان، تقضي فيه ثماني ساعات يوميًّا ثم بعد أن تعد الطعام تنحني على ماكينة الخياطة لعدة ساعات في الليل علها تصمد أمام مصروفاتهم وتدفعهم ليستمروا في تفوقهم الدراسي، ظلت هكذا حتى تخرج ربيع ابنها الأكبر في كلية الهندسة، وبتلك الشهادة استطاع ربيع أن يلتحق بوظيفة مرموقة في الخليج فرفع عن كاهلها كثيرًا من العناء والتعب وساعدها في نفقات تعليم سماح الابنة الوسطى حتى تخرجت في كلية الطب، أما محمود أصغر أبنائها فبرغم ذكائه الحاد فإنه فشل في الحصول على مجموع يؤهله لدخول كلية من كليات القمه مثل إخوته، التحق بمعهد فوق المتوسط، أخفق فيه، لكنه نجح في التعرف على أسوأ طلابه، دفعوه إلى الضياع

فتعاطى الحبوب المخدرة وتدخين المخدرات حتى أدمنها واستنفد عدد مرات الرسوب في أول سنة دراسية له فتم طرده من المعهد .

كان محمود يقضي أيامًا خارج البيت ولا يعود إلّا ليحصل على المال من أمه كي يشتري المخدرات التي تمادى في تعاطيها تدريجيًّا حتى وصل إلى الهيروين وأدمنه، بإدمانه الهيروين تغيرت كل طباعه وتصرفاته حتى كانت الطامة الكبرى، هذه المرة دخل على أخته يطلب منها راتبها الذي تقاضته منذ ساعات، وحين رفضت انهال عليها ضربًا وسبابًا، مزق ثيابها حتى تعرت، فأطلقت صرخاتها وهي تحاول أن تستر جسدها العاري، حاولت أمها أن تقف حائلًا بينهما وتسترها بجسدها، دفعها محمود بعيدًا وهددها أنه سيقتلهما إذا لم يحصل على المال الذي يريده، حطم كل شيء أمامه حتى وجد حقيبة أخته، حاول أن يستخرج النقود منها لكن زينب ألقت بجسدها كله على حقيبة ابنتها فقابلها بكتفه وألقى بها بعيدًا فارتطم وجهها بالحائط فانفجر الدم من فمها ثم انكفأت على وجهها بلا حراك!

ما إن رأى محمود كل هذه الدماء حتى تسمر في مكانه كأنه يسأل نفسه ما فعلت؟ كيف حدث كل هذا؟ لكنه سرعان ما مد يده داخل حقيبة يد سماح واستولى على المال الذي في الحقيبة ثم انطلق يعدو خارج البيت، وسماح تبكي وتحاول أن توقف الدم الذي يخرج من شفاه وأسنان أمها التي كانت فاقدة للوعي!

حاولت سماح إسعاف أمها، لكن قلبها كان منهكًا وضعيفًا، لم يتحمل الجرح الذي سببه محمود فلفظت زينب أنفاسها الأخيرة عند الفجر.

لم يكن جوار سماح غير جارتها صفية وزوجها الذي جهز كل شيء وأنهى مراسم الدفن، ورجعوا إلى البيت، لا يبدد الصمت الذي خيم على المكان غير صوت زفراتهم الحارقة، لا يرفع أحد رأسه عن الأرض، سحابة الحزن الثقيلة تحني رؤسهم وتمزق قلوبهم، حتى رفعت سماح رأسها تسأل زوج جارتها:

-عمي، هل أبلغت ربيع بوفاة أمي؟

هز رأسه ببطء شديد ثم قال:

-نعم يا ابنتي، وحتى يعود ستنام معك خالتك صفية وأخبريني بكل شيء تحتاجينه، ثم قام متجهًا إلى الباب مرددًا: "لا حول ولا قوة إلا بالله"!

لم ينم محمود منذ ذلك اليوم، ولم يستطع أن يحضر مراسم دفن أمه أو الاقتراب من البيت ليرى أخته. يومان كاملان قضاهما مع صديق له، يتعاطى فيهما الهيروين، كان إذا شعر بأن عقله بدأ ينتبه أو أن ضميره يستيقظ تعاطى جرعة جديدة لكي يصرف العذاب عن

نفسه، حتى أتى على كل ما يحتفظ به من جرعات الهيروين، المخدر الذي أنفق في سبيله كل المال الذي اغتصبه من أخته!

ما إن جن الليل على محمود حتى بدأ جسده يطلب جرعة أخرى من الهيروين، فأشتعلت النيران داخله حتى كادت تلتهم جسده النحيف، حاول أن يجد شيئًا في جيبه أو مع صديقه فلم يجد .

بدأ يشعر برعشة تضرب كل أطرافه وأنه يفقد اتزانه تدريجيًّا، فتأكد أنه مع مرور الوقت لن يكون قادرًا على التحكم في جسده الذي بدأ يترنح يمينًا ويسارًا حتى سقط على الأرض، وارتطمت أسنانه وشفتيه بها، فتحسس فمه فإذا بسنتين من فكه العلوي قد تحطمتا والدم ينزف من فمه، تذكر أمه والدم الذي نزف منها ولطخ ثيابها، فأغمض عينيه لعل صورتها تختفي من أمامه، لكنها لا تتركه وتقترب منه أكثر حتى شعر بدمائها تسقط على خده، وهو منبطح على الأرض ثم تقترب منه أكثر فأكثر فاغرة فاها الملطخ بالدماء كأنها تريد أن تلتهم رأسه، ويرى أسنانها وقد تلونت بلون الدم، وتتبعث من فمها زفرات كالجمر تحرق وجهه فيشيح بعيدًا عنها واضعًا يديه على عينيه!

وإذا به فجأة يرفع رأسه ويحدق بعينيه في سقف الحجرة وكأنه شعر بشيء قد وخزه في مؤخرته .

مسح فمه براحة يده، وحاول مرات أن ينهض، وفي كل مرة يفشل

في الوقوف على قدميه، أخذ يزحف حتى وصل إلى باب الشقة، واستجمع كل قواه حتى فتح الباب وكأن الحياة قد ردت إليه فخرج إلى الشارع وهو يشعر بالدوار أحيانًا وبالقوة أحيانًا أخرى حتى وصل إلى قبر أمه، الظلام يغطي المقابر كلها إلّا ضوء يبعثه القمر، جوار القبر مقعد من الطوب المغطى بالأسمنت يستريح عليه الزائرون ، ألقى جسده على ذلك المقعد، حاول أن يلتقط أنفاسه وهو يتفحص المكان شبرًا شبرًا، وجد على مقربة من باب القبر عددًا من الحقن المستخدمة في تعاطي المخدرات، انحنى يتفحصها جميعًا لعله يجد بعضًا من المخدر في واحدة منها وبالفعل وجد واحدة بها بعض من سائل مشوب بالحمرة هي حمرة دم من استعملها من قبل، التقطها وشمر عن ساعده بيده المرتعشة محاولًا أن يجد وريدًا يدفع بداخله هذا الشيء، بالكاد استطاع أن يجد وريده المتهالك فحقن نفسه بها، نزع الحقنة وألقى بها على الأرض، ثم أزاح بقدمه كل الحقن التي تراكمت بجوار قبر أمه، ما إن أزاح كل شيء حتى جلس على الأرض يتحسس الباب الحديدي للقبر، اجتهد حتى وجد المزلاج الذي يحكم باب القبر فوجده موصدًا بقفل كبير لتأمينه، حاول أن يجذبه لأسفل علّه يستطيع فتحه لكنه فشل، أخذ يتحسس الأرض بكلتا يديه باحثًا عن أي حجارة ضخمة يستطيع بها أن يحطم هذا القفل، لم يعثر على شيء قط، تحامل على ذراعيه كي ينهض، سار وهو يترنح ناحية المدخل الرئيسي للمدافن، حيث المنطقة الصناعية تقع في الجهة المقابلة له، وكذلك ورش السيارات بمخلفاتها الصلبة، توجه إليها وهو يتلفت يمنة ويسرة كي

يطمئن أن أحدًا لا يراه، بدأ يعبث في تلك الأكوام من المخلفات حتى وجد مطرقة على باب إحدى الورش فابتسم كأنه وجد كنزًا من ذهب، حملها عائدًا إلى قبر أمه.

وقف محمود أمام القبر بجسد مرتعد، تكاد تسقط كل أوصالة من شدة الرعشات التي حلت بكل جزء في جسده، يتصبب عرقًا ويشعر بأن جسده النحيل يكاد ينصهر من فرط ما أصابه من سخونة قد حولت جسده إلى قطعة من الجمر.

يحبس أنفاسة، يحملق في باب القبر طويلًا، يرفع رأسه إلى السماء برهة فيجدها حالكة السواد كأنها وجه جنيٍ عابس فلا يستطيع أن يطيل النظر إليها، يعود بنظره إلى القبر مرة أخرى، يتفحصه كأنه ينوي فعل شيء، لكنه لا يملك القدرة على البدء به فيطلب العون من السماء فيزداد وهنًا وخوفًا!

ظل على هذا النحو قليلًا حتى فقد الإحساس بيديه كأنهما تجمدتا وأصابهما الشلل فتسقط المطرقة من يديه على الأرض، يشعر في الوقت نفسه بأن قدميه أوهن من أن تنتصبا بل وترفضان حمله هو الآخر! استدار قليلًا وألقى بجسده على المقعد والخوف يزلزل كيانه، أنفاسه الهاربة تجعل صدره ضيقًا كأنه فقد رئتيه، تجحظ عيناه، وحين شعر بأن روحه تكاد تفارقه التقط المطرقة، ضرب القفل بكل ما لديه من قوة فتحطم القفل، سحب المزلاج وفتح الباب، أخذ يضرب الطوب

الذي خلف الباب وكان لا يحمل كثيرًا من الجص أو الإسمنت، انهار الجدار بضربة واحدة، فانحنى يريد أن يمر إلى داخل القبر فأوقفته الرائحة التي تملأ القبر، كاد يفقد وعيه فرجع بجسده كله إلى الوراء يحاول أن يستنشق هواءً نقيًّا .

استلقى على ظهره وقبض بكلتا يديه على التراب الذي ينتشر حول المكان، يدفع جسدة للرجوع إلى الخلف ثم يميل بظهره على حائط خلفه، يخلع قميصه ليصنع منه منديلا يضعه على فمه وأنفه كي يتقي به رائحة الموت وتعفن الجسد، يحكم الرباط على أنفه ثم يعاود الدخول إلى القبر، ينجح هذه المرة، لكنه لا يري شيئًا داخل القبر، كأنه نفذ إلى جوف الأرض، فتحسس بكلتا يديه أرض المقبرة حتى لامست يداه جثة أمه، مسح بيده على جسدها المسجى داخل القبر والمقيد بالكفن، حاول أن يصل إلى رأسها لكن يده فقدت حاسة اللمس وعقله غير قادر على فهم ما يحيط به من أمور لا يصدقها عقل بشري!

يصل إلى رأس أمه فيرجع إلى الخلف قليلًا فيكاد يقع على مؤخرته، يمسك بالكفن حتى يسترد توازنه، يهم بإزاحة الغطاء الذي يلُف جسدها، يستشعر برودة وجهها تسري في أنامله، ينحني قليلًا حتى كاد وجهه يلامس وجهها، يشعر أن صاعقة من السماء قد ضربته، تتجمد أوصاله فلا يستطيع أن يتحرك، يشعر بدمعة تريد أن تتحرر من سجن عينيه ولا تفعل، كأنها تجمدت هي الأخرى فأصبحت كرة من الثلج

استقرت في عينيه، يحاول أن يتخلص منها بيده لكنها سرعان ما انطلقت وخلفها دموع غيرها كانت تنتظر إشارة التمرد، فانهمرت الدموع المتمردة ساخنة تحرق خديه وتغسل وجه أمه!

–سامحيني يا أمي فأنا لست محمودًا الذي تعرفينه.. أنا لست أنا.. أنا شيطان خرج من الجنة بإرادته

أنا من دمر نفسه بغبائه!

أعرف أنك ستسامحينني وتدافعين عني كما كنت تفعلين طيلة حياتك، سامحيني يا أمي فأنا أشعر بصفعات حماقاتي تضرب وجهي وتهشم عظامي، سامحيني فأنا لا أجد قلبًا أحن عليَّ منك وأحتاج إلى صفحك وصبرك، أعاهدك أن تلك المرة ستكون حتمًا هي آخر حماقاتي!

كان يتمتم بتلك الكلمات وهو يصرف ناظريه بعيدًا عنها والدموع تنهمر كالمطر، كأنه يقدم قرابين الغفران تحت أقدام أمه في معبدها المقدس لكن يديه كانتا في عالم آخر نجس تتحسس الرباط الذي يلتف حول رأسها ليمنع انفراج الفم فيحل عقدة الرباط ثم يعبث بأصابعة محاولًا فتح فمها الذي كان كالصخرة صلبًا فضغط على جانبي فكيها بكل قوة، كانت ولا تزال تسكن أصابعه المرتعشة فينفرج الفم قليلا وتتسرب أصابعه من بين شفتيها وتتحسس أسنانها ثم تدخل إلى فمها

رويدًا رويدًا متجهة إلى مكان يعرفه هو جيدًا لكن أصابعه تسقط في فجوة كبيرة ولا تجد الشيء الذي كان يريده!

أسنان أمه المصنوعة من الذهب ليست في مكانها، أدخل يده كلها إلى فمها وحاول عبثا أن يجد الأسنان!

خر على مؤخرته ومال على جدار القبر برأسه ثم غاب في نوبة بكاء ونحيب لم يتوقف إلّا حين سمع صوتًا يأتيه من خارج القبر.

نظر إلى باب القبر فلم يستطع أن يرى غير بريق حاد يلمع في الظلام، ويأتيه من خارج القبر كأن هناك نجوما صغيرة تتلألأ في هذا الظلام الدامس، فتملكه الرعب، أصابه الفزع بالهياج فأخذ يصرخ ويعلو صوته ويعلو صداه داخل القبر، وحين أراد أن ينطلق إلى باب القبر وجد مجموعات من الذئاب تنقض عليه وتنهش في لحمه وتقطع جسده الهزيل وهو يتقلب بين أسنان هذا الذئب وذاك بلا صوت وبلا آهات، كأنه أصابه الخرص حتى بلغت الذئاب الشبع وعافته .

طابع بريد

لم أكن في يوم من الأيام أعرف شيئًا عن هواية جمع الطوابع البريدية، فكيف لصغير مثلي أن يعرف عن تلك الهواية أو عن غيرها، وهو يعيش في مدينة وما هي بمدينة، أو قرية، هي ليست بقرية، تتأرجح بين هذه وتلك، في إحدى محافظات الوجه البحري، أواخر السبعينيات من القرن الماضي، يشتهي أهلها اللحم الطازج بعد أن حدد السادات أيام الذبح، يتصارع أهلها رجالًا ونساءً أمام الجمعيات الاستهلاكية كي يحصلوا على السمن أو السكر أو الدجاج، ويحصلون في الزحام أيضًا مع تداخل الأجساد على أشياء أخرى تعوضهم اشتهاء اللحم!

كان الرجل حين يرجع بعد عامين من الكد والعرق تحت شمس الخليج الحارقة يتباهى بوضع المروحة

الكهربائية، وجهاز الفيديو في صالة بيته المتواضع، والمفروش بالحصير أو المكتفي بالبلاط فقط!

كنا لا نعرف من الألعاب غير السبع شقفات للصبيان، ونط الحبل للبنات والثعلب الحيران للجميع وكنت

أحب هذه اللُعبة.

عند المساء يكتفي الأذكياء من أقراننا بالشطرنج، إذا كان من أسرة ميسورة الحال، أما أنا فكنت مع أقاربي

نلعب السلم والثعبان أو بنك الحظ، ثم نختلف ونتصارع في نهاية السهرة، فتنهض أمهاتنا وترجع كل واحدة إلى بيتها وقد خاصمت الأخرى، حزنًا على ابنها، ثم ننام بعد ضرب مبرح سواء كان بالمكنسة المصنوعة من زعف النخيل أو بالعصا التي كانت تستخدمها أمي في تقليب الثياب في الماء المغلي أثناء الغسيل!

لأول مرة أعرف أن للطوابع هواة، وأن لها ألبومًا تُجمع وتُحفظ فيه، وهناك أسواق وتجارة ومبالغ ضخمة يتم دفعها ومزادات تعقد خصيصًا لها، يحترف بعض الناس زيارتها والمشاركة فيها.

حين سمعت أبي يقول لي في رسالة مسجلة على شريط كاسيت أرسله لنا مع صديق له قادم من العراق، إنه قد قام بجمع بعض الطوابع لي وسوف يحضرها معه حين يعود، كنت غاية في الدهشة ولم أنم ليلتي باحثًا عن أي ظرف قديم قد أجد عليه طابع بريد، لم أجد غير خطابات حكومية كان أبي يحتفظ بها في خزانة ملابسه!

أصبحت أعد الأيام وأنتظر أن يمر الأسبوع ويأتي الآخر كي ينادي ساعي البريد باسمي، فأفتح الباب وأنطلق على سلالم البيت، بل وأركب سور السلم لأصل سريعًا، وأخطف من يده الرسالة وأتفحص

الطابع لأول مرة في حياتي، وكنت قبل ذلك لا أعير للطابع ولا للرسالة أي اهتمام وأكتفي بسماع صوت أبي المسجل!

جلست على درجات السلم أحاول تخليص الطابع من المظروف دون أن أصيبه بضرر وكان يحمل صورة لأحمد حسن البكر وصدام حسين.

من هؤلاء؟ وما الداعي للاحتفاء بهم؟

لم أجد إجابة ولم أحاول أن أجدها، فصوت أمي يتعالى بين جنبات السلم فيصلني مع صدى الصوت

-هات الجواب واطلع، لو فتحته نهارك مش حيعدي!

-حاضر.

تخرج الكلمة مرتجفة وأنفاسي الهاربة مني غير قادرة على إيصال صوتي لمسامع أمي!

فأحاول القفز لأعلى كي أسكت هذا الوابل من اللعنات والوعيد والدعوات القاسية.

تمد أمي يدًا لتخطف الرسالة كالصقر والأخرى تمدها لتمسك

بشعر رأسي وتلقي بي داخل البيت وتدخل هي لغرفة نومها كي تفحص المظروف، تحاول أن تجد شيئًا داخله غير الرسالة، فإن لم تجد أي ورقة مالية تغير وجهها لكنها لا تفقد الأمل، فقد يكون بداخل الرسالة سطر أو سطران يخبرها فيهما أبي بأنه سيرسل لها قريبًا مع أحد أصدقائه بعض النقود التي تنتظرها!

داومت على فعل هذاالأمر في كل مرة يصل فيها ساعي البريد إلى البيت، ولا تزال أمي تكرر معي العقاب ذاته بلا كلل أو ملل، وحضر والدي لإنهاء إجراءات سفرنا معه إلى العراق، جلست أتفحص في أول ليلة لقدومه كل طوابع البريد التي أحضرها، تركني والدي لسعادتي ونشوتي وذهب لينام.

لم أتركه ليهنأ بنومه ولا بأمي، أيقظته في الفجر ليتفحص معي الطوابع ويخبرني عن سعر بعض الطوابع والقيمة التاريخية للبعض الآخر وكان يملك من الحلم ما زاد من نشوتي.

وصلنا إلى الموصل في العراق، وكان أول ما حاولت أن أجده هو مكان بيع الطوابع والكتب، وكنا نسكن في وسط المدينة، وبين القرطاسية وهو شارع مخصص لبيع المستلزمات المدرسية والكتب وبين بيتنا مسافة تصل إلى كيلومترين ذهابًا وإيابًا، وكنت أمر في طريقي على نهر دجلة، فأقف لأستريح وأتأمل هذا النهر العظيم وأشتري زجاجة مياه غازية أو اثنتين، وأحيانًا ثلاثًا من أطفال كانوا ينتشرون

علـى الطريـق يبيعونهـا ويبيعـون المـاء البـارد ليطفئـوا لهيـب صـيف الموصل الذي كان يشبه الجحيم في شهور تموز وآب وأيلول (يوليو وأغسطس وسبتمبر).

فـي القرطاسـية شـاهدت محـلات لبيـع الطوابـع، وكـذلك ألبومـات لحفظها، وحاولت أن أقتصد في مصروفاتي، وكنت كلما تجمعت لدي بعض الدراهم أذهب لأشتري طابعًا قديمًا، وكان أبي يحرص دائمًا على أن يأتيني بالجديد.

رجعت إلى مدينتي البين بين بعد سنوات عشتها في العراق، لم أحافظ على شيء مثلما حافظت على ألبوم الطوابع الذي اشتريته منذ سنوات طويلـة، وكلمـا ضـاقت الـدنيا وشـعرت بالشـوق لأبـي أخرجـت الألبوم، فأشاهد أبي بجوار كل طابع بريد وأسمع صوته حين كان يقول لي:

–ضـع هذا الطـابع هنـا وانقل هذا الطـابع مكـان ذلك الموجود بالأسفل، واجعل هذه الصفحة خاصة بطوابع تلك الدولة فقط.

كنت أشعر أن الحب والوفاء لهذا الألبوم وتلك الطوابع هو حب لأبي ووفاءً لذكراه، لم أتركه قط بل كان دائمًا يحتل أفضل مكان في مكتبتي منذ أربعين سنة حين اشتريته من الموصل.

ضاعت الموصل والعراق، ومات والدي، وكسى الشعر الأبيض كل رأسي، لكن هذا الألبوم مازال حيًّا يرزق برغم أنني أصبحت أطعمه بالكاد، لم يعد هناك بريد ولا يوجد أحد يرسل الرسائل لنا، بل لم نعد نحن كما كنا، لكنني مازلت أصر على حمايته من تقلبات الزمن، وسأبقى هكذا حتى أضعه وديعة غالية بين يدي ابني الأكبر.

كنت دائمًا أقول لنفسي: "لا أحد سيكون جديرًا بهذا الكنز غير ابني خالد"

بالأمس فقط أتم عامه الحادي والعشرين، كأنني كنت أنتظر نضوجه وتقديره لهذا الأمر الجلل!

جلست ليلة أمس، بعد أن قمنا جميعا بإطفاء الشموع ،لأمهد لهذا الحدث، ولكي أطمئن على أن هديتي ستكون في أمان، وأن طوابع البريد سوف تلقى منه كل تقدير، وتبقى وديعة يسلمها لأكبر أحفادي ليكمل الرسالة المقدسة.

لم يكن خالد يعرف شيئًا عن هذا الألبوم، ولذلك كنت أقدر انبهاره وصمته الغريب حين كنت أقص عليه كيف كونت مجموعات نادرة من تلك الطوابع، وكيف عانيت وأنفقت عليها، بل كم تحملت من ألم وضرب بالعصي وشد الشعر كي أظفر بطابع واحد!

مازال خالد لا يصدق ما يراه، وينظر في وجهي فلا استطيع فهم نظراته، أو أن أترجم تعبيرات وجهه المتناقضة والمبهمة.

لأول مرة أشعر بأنه أبله، ونظرات عينيه باهتة وفقيرة تصلني بلا أي شعور أو دفء!

تأبطته واتجهت به نحو الكنز، وقلت له أزح بيدك ستارة المكتبة البلاستيكية وأمسك بيديك هذا الألبوم الرائع وتمتع بما فيه ولا تتركه يومًا.

مد خالد يده ليمسك بالألبوم ونظر إليَّ ثم وضع قبلة على خدي قائلًا وهو يحتضنني:

-ميرسي يا بابي!

ثم خرج إلى الصالون، وكان ينتظره هناك بعض أصدقائه المقربين منه، وبعد دقائق كنت فيها أعد ترتيب مكتبتي، جاءني يستأذن في الخروج مع رفاقه لقضاء سهرة عيد ميلاده، وطبع على جبهتي القبلة الباردة نفسها ثم قال:

-باي يا بابي!

كنت مجهدًا ومتعبًا فذهبت لأنام بعد يوم طويل في العمل، وها أنا

أستيقظ هذا الصباح وكلي نشاط وقبل أن أتناول إفطاري حاولت أن أطمئن على خالد وإخوته، فكانوا جميعًا نائمين عدا خالد لم يكن على فراشه! حاولتالاتصال به مرتين وفي الثالثة أجاب قائلًا

–هاي بابي، صباح الخير صاحي بدري ليه؟

–بل لماذا تأخرت أنت؟ وأين وضعت الألبوم؟

–بابي أنا باحتفل مع أصحابي بعيد ميلادي! والألبوم تركته على الجزامة جنب الباب!

السيد سعودي

في مكتب شكاوى المواطنين الخاص بالأستاذ مصطفى سعودي الفائز بعضوية مجلس الشعب منذ ثلاثة أشهر، والذي اشتراه وأعده لمقابلة أبناء دائرته كل يوم منذ الثامنة وحتى العاشرة مساءً، يرتفع صوت الدكتور عطية المصري المنافس له في الانتخابات.

سمعت سكرتيرة مكتبه الأستاذة هدى الحوار الدائر بينهما، وتهديد الدكتور عطية للسيد العضو بمواصلة مراحل التقاضي حتى يتم الحكم له نهائيًا بأحقيته في مقعد الدائرة.

مما اضطر السيد مصطفىأن ينهي اللقاء قائلًا أرجوكافعل ما تريد ولكن دون فضائحأرجوك.

يضحك الدكتور عطية ويردد بسخرية

–فضائح! الفضائح قادمة وإن غدًا لناظره قريب.. وعمومًا سوف أقابلك تحت قبة البرلمان حين يتم طردك وأجلس أنا على مقعد دائرتي فأنا أحق به منك أيها القذر.

خرج الدكتور عطية غاضبًا من المكتب محاولًا أن يرسم على وجهه علامات الهدوء، أمام الموجودين في صالة الاستقبال بالمكتب،

بينما انتظر السيد سعودي حتى عاد له هدوؤه ثم اتصل بسكرتيرته السيدة هدى متسائلًا هل في المكتب أحد من المواطنين؟

أجابته هدى بميوعة طالما كان يعشقها، ويطلب منها أن تستعملها حين تتحدث معه، لكنه هذه المرة كان غاضبًا فقال:

-لخصي..حد عندك؟

أجابته بصرامة لم تعتدها قائلة:

-نعم حضرتك.

أرملة تريد مقابلتك، لديها طفل وتحتاج للعمل، تأمل في وظيفة بشركة الصرافة التي تملكها، وعلى فكرة.. تحاول أن تخفض من صوتها واستطردت قائلة:

هي بيضاء وعودها فرنساوي وليست محجبة وشعرها حرير!

ذكرت كل تلك المعلومات سريعًا وهي خائفة من أن يعود فيوبخها مرة أخرى.

قاطعها قائلًا:

-هل هناك غيرها؟

أجابته وهي تتلعثم فلم تعتد منه أبدًا أن يعنفها هكذا أو يكون جادًا بهذا القدر

–نعم هناك سيدة أخرى وفتاة، السيدة مطلقة وتريد مساعدتك حتى تتمكن من رؤية ابنتها ذات الخمس سنوات، لأن زوجها هرب بالطفلة ولا تعرف له عنوانًا، أما الأخرى فهي فتاة في كلية التربية الرياضية ونتيجة لأدائها بعض التدريبات العنيفة فقدت غشاء بكارتها، والدكتور يحاول استغلالها ويساومها كي يعطيها شهادة بذلك وتحتاج من سيادتكم أن تقف بجانبها حتى تأخذ منه تلك الشهادة!

بهدوء يقول:

–هدى ..اسمعي جيدًا..أنا مجهد.. هل تفهمين ما أقوله؟

قال لها تلك الكلمات وطلب منها أن تعتذر لهم وأن تخبرهم أن السيد العضو غير موجود وأنه خرج لأداء مناسك العمرة وسيرجع بعد أسبوعين بإذن الله!

أطفأ كل مصابيح المكتب إلّا كشافًا للقراءة ذا إضاءة خافتة، وأخذ هاتفه المحمول ثم قام بالاتصال بصديقه سعد الذي يحتفظ بصداقته من الصغر

–سعد ... إنت فين؟

-أنا هنا يا باشا تحت أمرك.

-سوف أمر عليك بعد عشر دقائق، ضع زجاجة الويسكي وزجاجة الشامبانيا التي اشتريتهما لي من السوق الحرة في كرتونة رمضان التي كنا نوزعها وأعطها لحارث العقار عندك، سوف أمر عليه لآخذ الكرتونة منه بعد ربع ساعة.

-حاضر.. حاضر... بس فيه إيه؟ صوتك متغير!

يقاطعه سعودي قائلا: سلام.

لم يأخد سعودي وقتًا طويلًا كي يتصل بالدكتورة سهير صديقته وطبيبة العلاج الطبيعي

-سهير إنت فين؟ أحتاج أن أراكِ حالًا هل أنت مشغولة؟

-يا باشا أنت تؤمر.. تعال أنا في العيادة.

-أنا في الطريق.. سلام.

لم تمر دقائق معدودة إلّا وسعودي قد دخل إلى عيادة الدكتورة سهير حاملًا الكرتونة الرمضانية ذات الزجاجتين المعتقتين!

دخل على هدى الممرضة وهي تحمل اسم سكرتيرته نفسه أيضًا

وكان يحاول رسم بسمة باهته على وجهه وسألها

-هل مع الدكتورة سهير أحد؟

-لا يا فندم هي في انتظار حضرتك..تفضل معي.

طرقت هدى باب حجرة الكشف ودخلت على الدكتورة سهير قائلة لها:

-سيادة العضو حضر لمقابلة حضرتك.

-أهلًا وسهلًا تفضل يا باشا

دخل سعودي وجلس على المقعد المقابل لمكتبها.

بينما قالت الدكتورة سهير لهدى:

-روحي يا هدى هاتي الإيراد واتفضلي إنت روحي.

-حاضر يا دكتورة

ما إن خرجت هدى وأغلقت الباب خلفها حتي قفزت سهير متناسية كل شيء، تحاول تقبيل سعودي لكنه نهض قائلًا:

-بالراحة واصبري لما البنت تمشي!

دخلت هدى بعد أن طرقت الباب ووضعت الإيراد أمام الدكتورة سهير وقالت:

-تفضلي حضرتك، ٥٠ حالة و١٧٥٠٠ جنيه.

-خلاص يا هدى اتفضلي إنت واقفلي باب العيادة، سيادة العضو حيخلص علاجه الطبيعي وأنا حقفل العيادة بنفسي.

خرجت هدى مسرعة وأغلقت باب العيادة، وبدأت سهير في التخفف من ثيابها وهي تسأله

-أنت فعلًا مجهد ولست كما تعودت أن أراك أبدًا!

-اتخرب بيتي.. لن يكون هناك مجلس شعب ولا مكتب صرافة ولا مدارس خاصة، سيضيع كل شيء وأنت تعرفين في مصر حين يقع العجل، ألف عدو يترصدني، الجميع ينتظر أن أقع تحت أيديهم!

-هدئ من روعك ولا تقلق وتعال واستلق هنا لأضع يدي على الألم، تقولها وهي تضحك ضحكات كلها أنوثة ورقة.

-أبوس إيدك انتظري أنا في مصيبة.

–بعد الشر، إنت وحشني، لم أرك منذ ثلاثة أشهر، وفعلت كل ما طلبته مني، اختفيت من حياتك حتى تستقر أمورك، أنا الآن أريدك، هنا.. دون هدايا أو أموال، أريدك الليلة مجانًا، لن آخذ منك شيئًا هذه الليلة فهي ليلتي أنا وعلى حسابي الخاص!

–اسمعي .. كل ما تطلبينه سأفعله ولكن هل الجو على ما يرام وأمان؟

–أكيد أمان ومليون أمان!

تجيبه سهير وهي تنزع عنه ثيابه بنهم وشهوة، ثم تدفعه برقة ليستلقي على الشيزلونج، وما كادت تستلقي عليه لتقبله إلّا وسمعا أصوات تحطيم أبواب، ووقع أقدام رجال يأتون من داخل صالة مركز العلاج الطبيعي الذي تمتلكه سهير.

ثوان وإذا بكل الرجال يقفون على رأس سعودي ويمسكون بيد سهير، ويدفعونها بعيدًا عنه ويسأله رجل منهم أن يصحبهما دون فضائح، فكل مكالماته وتحركاته كانت مسجلة بأمر النيابة منذ ثلاثة أشهر.

يقف سعودي محاولًا لملمة أشلائه ويسأل رئيسهم بكلمات هاربة منه:

–هل تسمح لي بأن أرتدي ثيابي؟

–طبعًا فليس لي حاجة في أن تخرج عاريًّا كما ولدتك أمك، ليس خوفًا عليك ولكن احترامًا للمجلس الذي أنت عضوا فيه ..ارتدِ ثيابك سيادة العضو!

أبلة فضيلة

أسبوع مر على وحيد منذ تعرضه هو وأسرته إلى حادث أثناء سفرهم بسيارته على الطريق الزراعي، مما اضطر الأطباء إلى بتر ساقه، أسبوع ووحيد في شبه غيبوبة، نوم متواصل تحت تأثير المخدر، كلما أفاق أسعفوه بجرعة أخرى، تذهب عنه الألم، فيعود ويستسلم للنوم من جديد.

لأول مرة منذ أسبوع ينتبه وحيد إلى العالم الذي يحيط به، لقد وجد كل ما حوله أبيض، الأَسِرَّة بيضاء، الحوائط بيضاء، سقف الغرفة كأنه جبال من قطن توشك أن تقع على صدره المنهك فتحطمه!

المرضى الذين يشاركونه الغرفة يرتدون مثله ثيابًا بيضاء، ذاكرته التي طالما أقضت مضجعه لأيام، يراها الآن صفحات ناصعة البياض، فصار طيفًا من أثير لا وزن له، فما عاد يذكر شيئًا.

يرقد وحيد على فراشه الخشن، يتألم كطائر مذبوح سقط فجأة على أرض زُرِعتْ بالأشواك، لا يشعر بنصفه السفلي تمامًا، أراد أن يتأكد أنه مازال حيًا، يحاول أن يحرك أصابع يده، ثم يرفع كلتا يديه إلى أعلى محدقًا بنظره المعتل فلا يرى يديه بوضوح، يقرب يديه أكثر إلي فمه وأنفه، يستشعر أنفاسه الثقيلة فيطمئن.

شق سمعه فجأة صوت المذياع يأتيه من ناحية سرير مجاور له

ياولاد ياولاد.. تعالوا تعالوا.. علشان نسمع أبلة فضيلة..

هبط وحيد من عالمه الأبيض إلى عالم آخر يتلألأ بألوان زاهية مبهرة، مازالت تسكنه ويعرف تفاصيلها جيدًا فهي لم تفارقه أبدًا.

تلك الأيام التي عاشها وهو طفل، يستيقظ من نومه على صوت سعال أبيه وهو يحرك مؤشر المذياع، يرتدي ثيابه ويتناول الفطور على صوت البرنامج العام.

كان وحيد يستيقظ مبتسمًا دائمًا فور أن يصافح أذنيه صوت أبلة فضيلة، يلقي عليها تحية الصباح كأنها أمه الحقيقية، التي تقبله وتأخذه من يديه إلى عوالم كلها السحر والبهجة وألوان قوس قزح!

يتذكر وحيد حين دخل يومًا إلى غرفة نوم أبيه فوجد أمه تحاول أن تساعده كي يرتدي سترته فيصيح بصوت كله سعادة وغبطة ودلال

-أنا .. أنا .. أنا !

لكن أحدًا منهما لا يهتم به، فيسقط على الأرض باكيًا محاولًا أن يدفن رأسه بين ذراعيه فيسمع أبلة فضيلة تقول:

–قوم متزعلش أنا حعملك اللي إنت عايزه وحنسافر على القمر ونبني أجمل قصر هناك!

يرفع رأسه بابتسامة تختلط بالدموع فيحاول أن يمحوها بظهر يده، فيجد يد أبيه تمتد إليه وهو يبتسم ويرفعه إلى السرير ويقول:

–لا تحزن، خذ السترة وساعدني كي أرتديها.

يشعر وحيد أن أباه قد حمله على ظهره وصعد به إلى القمر ليبني القصر مع ماما فضيلة،

ويتطلع إلى المرآة التي يقف والده أمامها فيرى القصر والقمر ووجه ماما فضيلة، أجمل امرأة عرفها في حياته، برغم أنه لم يرها قط، ولما لا وهي التي تروي له أجمل الحكايات وأروع القصص!

–حمدلله على سلامتك يا أستاذ وحيد.

كان ذلك صوت الممرضة التي كانت تقف بجوار فراشة، وفي يدها الحقنة المسكنة التي حان وقتها، وتحاول بيدها الأخرى أن تجد وريدًا في ذراعه كي يعود إلى النوم من جديد.

مع وخزة الإبرة في وريده يتوقف وحيد عن الغوص في الذكريات، ويشعر بيد الممرضة، فينظر إليها بعينين تائهتين وأذن تحاول أن تصل

إلـى المـذياع لتسـتمع إلـى الصـوت المحبـب لـه وللحدوتـة مـن " أبلـة فضيلة."

فيأتيه صوت الممرضة ناعمًا يسكنه الحزن :

–سمعنا بعض الشائعات التي تقول إن أبلة فضيلة قد وافتها المنية بالأمس!

"الله يرحم أبلة فضيلة سواء عايشة أو ميتة."

انتبهت كل حواسه وانتفضت كل عروقه، ورأى كل شيء حوله بجلاء، فشاهد قطعة القطن وهي تبتلع قطرة دم خرجت من وريده!

شاهد ابنه وهو يرتطم بزجاج السيارة الأمامي فيحطمه مندفعًا خارج السيارة، يسمع صوت زوجته وهي تصرخ: حاسب يا وحيد!

لكن الحادث دمر كل شيء، ها هو يرى زوجته الآن جثة تسبح داخل السيارة في بحار من الدماء!

يا ولدي إنها الحمى

منذ الصباح الباكر وأنا في الإسكندرية، يوم مشرق، نسائم حالمة ومبهجة، الشمس عروس تغازل كل من يمر على شاطئ البحر، فيترك مقصده ويقف ليستمتع بعناق الشمس وقبلاتها ويذوب في سحر الأمواج وأسرارها!

أنهيت بنجاح كل ما سافرت من أجله، كنت غاية في النشاط، واكتملت سعادتي حين قابلت في نهاية اليوم من كنت أحلم بلقائها منذ زمن، السيدة صفاء عبد الدايم مديرة العلاقات العامة في الشركة التي أعمل بها، تلك المرأة الساحرة التي تخطت الأربعين، ولا تزال تحتفظ بأنوثتها الطاغية، وتتمتع برشاقة فتاة في العشرين من عمرها!

امتد اللقاء لأكثر من ساعة، وبرغم أنها سيدة صارمة، كلماتها محددة وقاطعة، لا تخرج في حديثها عن أمور العمل لحظة، لكنني شعرت في اللقاء باللذة والنشوة، فما سبب تلك اللذة؟ ولماذا خرجت من مكتبها منتشيًا؟

..لا أعرف!

الحق أنني أعرف السبب تمامًا ولكن إذا بحت به فلن يرحمني هذا العالم، الذي يدفن رأسه في الرمال ويكفر بالحقيقة وهو يضاجعها ألف

مرة مع كل يوم تشرق فيه الشمس!

نحن نحاول دائمًا أن نكبح الجسد ورغباته، ربما بدافع من المثالية واحترام الذات، أو التدين الظاهري أحيانًا، فإذا غاب هذا الوازع أو ضعف قليلًا، انطلقت غرائزنا الكامنة داخل الجسد، تحطم القيود التي تكبلها وتتحرر من سجن الوقار، وتعود إلى صورتها الأولى وطبيعتها البدائية، فتصبح كالسيل الجارف الذي كان مياهًا قابعة خلف السد في وداعة وسكون، حتى إذا سقط أول حجر من هذا السد انطلقت المياه طوفانًا، سيلا يعربد بالحواس وغرائز همجية كأنها لم تروض يومًا ولم تعرف من قبل معنى السكينة !

خرجت من باب الشركة المطل على الكورنيش، وطيف السيدة صفاء الجميل ما زال يسكنني وراحة يدي التي صافحتها تحتضن بلهفة عطرها الفواح فجعلها وكأنها تسير إلى جواري!

عبرت الطريق متجهًا إلى البحر، وجلست على رمال الشاطئ، لا أفعل شيئًا غير الغوص في زرقة البحر، وتركت العنان لبصري فلم أر غير جسد السيدة صفاء التي كانت مستلقيةً أمامي، يحملها الموج برقة ويقربها إلى ناظريَ فتبدو كأنها عروس البحر، جمالها يسلب عقلي، ويحجب عنه الكون بفتنته فما عدت أشعر بمن حولي، ولم أفق من هذا الحلم الجميل إلا على رعشة تعصف بجسدي!

لقد زادت نسائم البحر شعوري بالبرد الذي بدأ يتغلغل داخلي، وضربت القشعريرة كل أوصالي، فعزمت على الرحيل وتوجهت إلى سيارتي كي أعود إلى البيت قبل أن يتمكن الإرهاق والوهن مني.

هاتفت زوجتي لأخبرها بأنني في طريقي إلى المنزل وأشعر بإرهاق شديد، لذلك لم تتركني طوال رحلة العودة كي تطمئن عليَّ حتى وصلت البيت ..لا أعرف كيف وصلت من شدة الإعياء والإرهاق!

استقبلني ابني وحمل عني حقيبتي، لقد كنت في شبه غيبوبة من فرط الحمى التي ضربتني بكل قسوة، فتركت له كل شيء وصعدت إلى شقتي وكانت زوجتي تنتظرني على الباب في قلق ولهفة.

لا أعرف السر في تلك المرأة فهي تشعرني دائمًا بأنها أمي من فرط حنانها وطيبة قلبها !

تحاملت عليها حتى وصلت إلى غرفة نومي فساعدتني في تغيير ملابسي، واستلقيت على فراشي لا أشعر بشيء غير الحمى التي تضرب رأسي، دموع تتساقط من عينيَّ من أثر الحمى!

رافقتني زوجتي طوال الليل، تضع كمادات الماء البارد على جبهتي وتناولني بعض الأدوية لعلاج نزلات البرد، تتابع باهتمام قياس درجات الحرارة لجسدي الملتهب، وتحضر لي المشروبات الدافئة كي

أستطيع تجاوز تلك الحالة التي لم أمر بها أبدًا، وابنتي معها تساعدها في رعايتي وأراهم خيالات تهيم حول فراشي حتى غبت تمامًا عن الوعي !

ما إن استيقظت من نومي حتى شعرت بأنني في البيت بمفردي، ولم أسمع غير صوت القرآن يأتي من الصالة، وبح صوتي وأنا أكرر النداء على زوجتي ولا أحد يسمع النداء، وحين فقدت الأمل في أن تجيبني ناديت على ابنتي ثم على ابني الذي جاء بخطوات متثاقلة وبطيئة مرددًا

–نعم .. نعم يا بابا!

سألته وأنا غير قادر على مواصلة الحديث أين أمك؟ أين من في البيت جميعًا؟

–بابا حضرتك عايز حاجة؟

كان سؤاله وطريقة إلقائه للسؤال تشعرني بالحرج، وتقتل الكلمات على شفتي لكنني سألته مرة أخرى:

–أمك فين؟ أنا أحتاج إليها.

–بابا إيه اللي أنت قولته بالليل ده؟ إيه كل إللي إنت عملته إمبارح ده؟

ماما سابت البيت وراحت عند جدو!

عالم العجوز

تحترف أمي العزلة والانطواء منذ وفاةِ والدي، لا ترحب بزيارات الأهل، قلما ردت على الهاتف، تحبذ أريكتها الأثيرة، فلا تفارقها حين يطرق بابها زائر، تعيش في سكون، غرفتها خافتة الإضاءة، لا تحفل بالأولاد، حتى أحفادها، قرآن وتسابيح بين الصلوات، ثم الصمت حتى يغلبها النعاس!

جَهزتُ لها غُرفَةً ذات أثاثٍ بهيج، ورجوتها أن تعيش معي، ومع أسرتي التي تُحبها، أبت، بل لم تلتفت إليَّ حين ناشدتها بروح أبي.

لم أستسلم، فكرت في شيء يُخرجها من صمتِها، يؤنس وحشتها ويبدد عزلتها، أحضرت لها بالأمس مع ابنتي حوضًا كبيرًا لتربية السمك، به ما نَدَرَ من أسماكِ الزينة، ألوانُ وفصائلُ مختلفة، وقفصًا به ببغاء، لا يكف عن المداعبة بالكلمات والحركات، واصطَحبَت لها ابنتي مجموعة من الزهورِ الجميلة، انتقت ألوانُها بعناية، بعد أن أخبرتُها أنها ستقضي مع جدتها عطلة نصف العام الدراسي، وكانت قد بدأتها بالأمس.

توجهت بعد العمل مباشرةً إلى بيت أمي، دخلت، فإذا ابنتي جالسة على كرسي جوار الباب، على يمينها حقيبة ملابسها وتحتضن

قفص الببغاء بين زراعيها، استقبلني الببغاء مرددًا:

-أهلًا وسهلًا، أهلًا وسهلًا!

دخلت إلى غرفة أمي، ونحيبها يرجُ مسامعي، قد افترشت الأرض، جوار حوض السمك، في يدها الزهور ذابلة، ألقت جبهتهاعلى بلور حوض السمك، تحملق في بقايا سمكة، أكلتها الأسماك وتركتها هيكلا على أرضية الحوض.

ضممتها إلى صدري، ورفعت رأسها بيدي، كانت الدموع قد جرحت وجنتيها وبللت زجاج الحوض، أشاحت بوجهها عني وهي تدفع يدي بعيدًا، لم تنبس ببنت شفة، فقط أشارت برأسها ناحية ابنتي، ثم رفعت حاجبيها وسبابة يمناها، وأشارت إلى باب المنزل، تسألني في صمت رهيب أن أرحل أنا ومَن حضر معي، ابنتي والببغاء.

عم آدم

لم أعد قادرًا على رفع هذا الباب المعدني أبدًا، لقد كبُرت، لم يعد ظهرى يحتمل، كل يوم يرسل إليَّ الله من يساعدني في رفع الباب وفتح دكانتي، ما بال هذا اليوم لا أحد يعبر الشارع!

كان عم آدم الحلاق أكثر فطنةً وبُعْدَ نظر، رفض أن يغير بابه الزجاجى ذا القوائم الخشبية، كان لي باب مثله، كم كنت أحمق، ولكن هناك فرقًا كبيرا بين محل لبيع الساعات القيمة وبين صالون لحلاقة الرجال، لن يجد من يحاول سرقته غير كرسي أثري مصنوع في نهاية الأربعينيات، يجلس الزبون عليه ليقص شعره، ومرآة بلجيكية الصنع ومذياع يحتاج إلى عشر دقائق حتى ينطق، مذياع لا يبث سوى إذاعة البي بي سي باللغة العربية !

الحمد لله، ألمح من بعيد رجلًا قادمًا، إن الوقت مازال مبكرًا حتى يبدأ المارة في العبور بهذا الشارع، أغلبهم موظفون ومعلمون وطلاب، جميعهم يعبرون أمام المحل في السابعة صباحًا .

اقترب الرجل وأصبحت قادرًا على رؤيته بوضوح، إنه عم آدم! ما الذى أتى بك في هذا الوقت المبكر يا عم آدم؟ خمسون عامًا من الجيرة، المحل بجوار المحل، لم يغير هذا الرجل موعد فتح صالونه أو

غلقه، يأتي في التاسعة صباحًا وينصرف في التاسعة مساءً!

أصابني قدوم عم آدم على غير عادته بالقلق، إنه كالساعة في الدقة والنظام، لذلك لم أعد قادرًا على الصبر حتى يصل إليَّ، لذلك توجهت إليه وقابلته في منتصف الطريق.

–خير يا عم آدم، كفى الله الشر، فيه حاجة؟

–لا.. لا يا حاج فتحي، اطمئن، أتيت فقط لرؤيتك.

–بس إنت عمرك ما عملتها!

–دعنا نكمل الطريق وسوف أخبرك حين نصل إلى المحل .

شعرت بأن عم آدم مجهد، كأنه لم ينم ليلته، فأخذت بيده وجعلته يتأبط ذراعي ورجعنا إلى دكانتي.

ساعدني عم آدم في رفع بابي لأعلى، وأكملت أنا رفعه بعصاةٍ أضعها خلف الباب مباشرةً، توجه هو إلى صالونه، فتحه ودخل كي يمارس طقوسه، لم يغير عاداته منذ استأجرنا المحلين معًا عام اثنين وخمسين، قبل ثورة يوليو بثلاثة شهور بالتمام والكمال.

جلست على مقعدي الخشبي أمام الفاترينة، تضرب قلبي الهواجس

حول جاري، صديق عمري، أعمارنا واحدة وبرغم ذلك لا أقول له إلا عم آدم، فدائمًا يكسوه الوقار والهدوء منذ عرفته، كان شابًا في العشرين من عمره، وها هو الآن يقترب مثلي من السبعين، لكنه لم يتغير ولم يفارق عاداته قط!

يفتح صالونه في التاسعة صباحًا، وأول شيء يفعله، يفتح المذياع، منذ أن اشتراه والمؤشر لم يتحول عن إذاعة لندن، يرتدي معطفه الأبيض النظيف فيبدو كأنه طبيب، يقوم بتلميع الموقد النحاسي بقطعة من القطن المبللة بالكحول الأحمر، ثم يعيد ملء الموقد بهذا الكحول، يضع براد الشاي الممتلئ بالماء على الموقد، ويبدأ في تنظيف الأمواس والمقصات، يمسح المرايا وكل أدوات الحلاقة، قبل أن يبدأ في كنس المحل، يقوم بنثر بعض الماء على الأرض بأصابع يده كي لا يثير الأتربة، حينئذ يكون الماء قد بدأ في الغليان، يصنع كوبًا من الشاي، يضع عليه حبتين من القرنفل، ثم يحتسي الشاى وهو يستمع إلى نشرة أخبار التاسعة والنصف، يأتي الزبون الأول في العاشرة تمامًا، إذا تأخر الزبون عن موعده أكثر من ربع الساعة، ألغى الموعد، وحدد له موعدًا آخر، خمسة وأربعون دقيقة يقضيها في حلاقة شعر الزبون، بين كل ذبون وآخر نصف ساعة، يستريح فيها، ينظف أدوات الحلاقة ويعقمها!

هكذا تعلم عم آدم تلك الصنعة على يد الخواجة مكاري اليوناني

الأصل، كان حلاقًا ماهرًا، علم صبيه النظام والوقار والابتسامة الراقية في وجه زبائنه.

زبائنه رؤساء شركات، قضاة، كبار المحامين، جميعهم أصحاب مناصب كبيرة في البلد، لا يقبل زبونا جديدا إلّا إذا رشحه أحد زبائنه، فيأتى ليتوسط له، يشترط على الجميع الالتزام بالمواعيد!

دخل عم آدم عليَّ المحل حاملًا في يديه صينية من النحاس اللامع، لها بريق كالذهب، عليها قدحان من الشاى، تفوح رائحة القرنفل منهما، قال في وداعة وابتسامته المعهودة تظهر من خلفها أسنان مستوية ناصعة البياض كأنها اللؤلؤ:

–صنعت لك كوبًا من الشاى ستظل تذكرني به طوال عمرك المديد بإذن الله.

–ياخبر أبيض، أحضرت الشاى بنفسك يا عم آدم!

–نحن إخوة وعشرة عمر، هل تفضل شرب الشاى عندك أم خارج المحل؟

–أنت لم تجلس خارج المحل أبدًا يا عم آدم!

–ياسيدي، نكسر القواعد والنظام مرة واحدة في العمر، هيا تعال.

حملت المقعدين إلى خارج المحل، وتناولت كوب الشاى من يده، جلست أنا بينما دخل هو إلى صالونه ليضع الصينية بالداخل، ثم خرج مرتديًا معطفه الأبيض يحمل كوب الشاى في يده، الوجه الأبيض المشوب بالحمرة دائمًا كان اليوم باهتًا وشاحبًا!

وضع كوب الشاى على الأرض بجوار مقعده، جلس، رجع بظهره إلى الخلف، أسند رأسه على الجدار، أغمض عينيه، أخذ يمسح بكفيه على فخذيه بحركات دائرية، أطبق شفتيه بشدة، كأنه يحرص على أن يسجن الكلمات داخل فمه.

كان عم آدم طويل القامة فالتفت إليه رافعًا رأسي كي أستطيع أن أتفحص قسماته واستشف ما يشعر به، كان الحزنُ يلقي بظلاله على وجهه فسألته

-بالله عليك يا آدم ماذا بك يا أخي؟

تحدث إليَّ وهو مازال يستند برأسه إلى الجدار خلفه ويغمض عينيه

-الدكتور فخري والدكتور رفيق.

-أولادك! خير بإذن الله! هل أصابهما مكروه لا قدر الله؟ أعرف أنهما هاجرا إلى كندا منذ سنوات!

–رفيق حضر منذ أسبوعين، جاء ليصحبني معه إلى هناك، أنهى التأشيرة وإجراءات السفر، الليلة في التاسعة مساءً ستقلع الطائرة بنا!

–معقولة!

اعتدل في جلسته، مسح على وجهه بكفيه، مر بهما على رأسه، يمسح شعره القصير شديد السواد قائلًا :

–كيف أخبرك بقدومه وأنا أعرف أنه لن يأتي ليسلم عليك! بل كيف أقول إنه يجبرني على السفر وأن أترك كل شيء وأرحل معه!

–طيب، حصل إيه؟

–خيرني بين أمرين أحلاهما مر، العيش معهم هناك أو أن أموت وحيدًا هنا!

–معقول دا رفيق؟

–الدكتور رفيق! منذ هاجر والتحق بأخيه فخري، كان دائمًا ما يقول لي: بعد وفاة أمنا ليس لك شيء فى مصر لتجلس من أجله !

–لك الصالون، لك أصحابك وأحبابك وجيرانك!

–لي بلدي يا أخي، لي شجرة التوت هذه، غرستها بقرب باب المحل، منذ عشرين عامًا وأنا أعتني بها، أرويها كل صباح، لي كل تلك العصافير التي تزقزق على أغصانها وتطربنى دائمًا!

–يا آدم عيالك عايزين يطمنوا عليك ويراعوك.

–الدكتور رفيق لا يفهم أنني مزروع بهذا الصالون، يعتقد أنني حلاق فقط، منذ أن اشتد عوده لم يأت إلى هنا، لم يحضر يومًا كي أقص له شعره!

–أنت أعظم حلاق في مصر يا عم آدم.

–أنا أصبحت من التحف النادرة، صرت طرازًا قديمًا ينتظر نقله إلى المتحف كي يطوف به الناس مشدوهين، يلتقطون بجواره الصور!

–ليه كده يا عم آدم؟ أنت بخير وقادر تشتغل، وحتسافر لعيالك وتشوف الدنيا؟

–دنيتي وجنتي هاهنا، أعرف مكان قبري، أن أرقد بجوار زوجتي خير لي من الدنيا ومن أولادي!

بدأت تلمع في عينيه الدموع، أشاح بوجهه بعيدًا عني، أخرج منديلًا من جيب معطفه ليجفف به دموعه، ثم نهض متجهًا إلى داخل

الصالون، تركني في عالم آخر، يعتصرني الحزن عليه وعلى جيرته الطيبة.

لم أره يبكي إلّا مرة واحدة، يوم وفاة زوجته، كان كطفل صغير فقد أمه، وحينها واحترامًا لمشاعره، تركته وأغلقت عليه باب صالونه، خرجت لا أستطيع أن أحبس الدمع من عيني، ما أشبه الليلة بالبارحة، ها أنا الآن أترك مقعدي وأسير خلفه لأغلق عليه باب صالونه ليختلى بنفسه !

دخلت دكانتي، طافت عيناي وهما تدمعان بكل ركن في الدكان، كنت أسأل نفسي، على أي شيء أبكي؟

لقد فعل بي ابني مثلما فعل رفيق بآدم، لقد رفض أن أستمر في إصلاح الساعات، قال لي إنها صنعة لم تعد مطلوبة وعليَّ أن أستريح وألّا أجهد عيني بهذه المهنة التي انقرضت.

أخذ يبحث عن أحد ليشتري أدوات صنعتي، تلك الأدوات التي اشتريتها بكدي وعرقي، كنت أحرص عليها من الضياع والتلف حرصي على حياة ابنائي، وحين جاء من سيشترى أدوات صنعتي، وضعها في صندوق كأنها قمامة يريد أن يتخلص منها، بكيت يومها كما لم أبك من قبل، تمامًا كما يبكي آدم اليوم!

كنت أتحسر وأنا أراه يدفعني تدريجيًّا للجلوس على باب المحل، لأقبع خارجه، أهش الذباب عن وجهي وأنشغل برد السلام على المارة، أتابع حركة ظلي على الأرض، أشاهده يسير ببطء حتى يرحل، يفارق جسدي ويغرب مع شمسي التي تغرب!

لذلك أحرص على القدوم مبكرًا، لأستمتع بالجلوس على مقعدي وبين جدران دكانتي، قبل أن يأتي ولدي حاملًا الصمت معه، يقول صباح الخير على مضض، وأتحرك أنا لأُخلي المكان له، أتسمر خارج دكانته تأكلني الوحدة ويمزقني الصمت كالعادة.

أصبحت أنا الآخر من التحف النادرة، أنتظر من يرسلني إلى المتحف يا آدم!

شعرت فجأة بأن رجلًا قد مر جوار دكانتي متجها إلى صالون عم آدم، خشيت أن يدخل عليه فيراه وهو يبكي، خرجت كي أستوقفه، نسيت أن أجفف عينى من الدمع، فإذا به رفيق ابنه يدخل الصالون على آدم،

دخلت خلفه مسرعًا، لمحت عم آدم مستلقيًا على كرسي الحلاقة، يداه تتدليان على جانبي المقعد ورأسه قد استقرت على صدره الساكن كالحجر لا يتحرك !

الزبال

استيقظت كعادتي على نهيق حماري، فهو يعرف أني حين أنام أصبح كالأموات، لذلك أخذ يرفع صوته بالنهيق ولم يصمت حتى خرجت إليه، ألقيت عليه تحية الصباح، وأنا أمسح بكفي على رأسه، فأشاح بوجهه عني، لقد كان جائعًا مثلي، وضعت له حُزمَة من البرسيم، أما أنا فسوف أتناول الفطور حين أصل إلى مكان عملي، الناس هناك كرام إلى حد السفه!

توجهت إلى العربة، التي أجمع القمامة داخل صندوقها المحطم، ثَبَت الحمار في العربة وأحكمت لجامه، وخرجنا معا كالمعتاد، أنا والعربة والحمار الذي مل الطريق، ما إن وصلنا إلى الحي، حتى شعرت بشيء غريب يجثم على صدري، حالة من الاشمئزاز تنتابني هذه الأيام تجاه هؤلاء الناس، أشخاص يصيبونني بالغثيان أكثر من قاذوراتهم، المخلفات التي أجمعها منهم هي مصدر رزقي وطعامي، لكن أصحاب تلك النفايات هم مصدر إحباطي ومنبع دهشتي.

قفزت من فوق العربة، فطفح ما بداخلي من حنق، ألقيت على حماري حبل اللجام كأني أجلده، وجذبت القُفة إلى ظهري، وعيناي تتخلعان من وجهي وتحلقان إلى أعلى، تطوف على واجهات البيوت، ودون قصد، خرجت مني تمتمات يسكنها الغيظ، رحت أبوح بحديث

وجهته إلى أهالي هذا الحي:

أيها الفئران العفنة، أنتم اليوم رهائن عندي، سأحتجزكم في مصيدتي، وأستمتع برؤية الزعر في عيونكم حين أصب الزيت على النار فأحرق بها خواصركم السميكة!

أتيت إلى هذا الحي منذ عشر سنوات، كي أساعد أبي في جمع قمامة هؤلاء الأوباش، انبش بيدي في صناديق مخلفاتهم القذرة، أعرف كل أسرار حياتهم، لذلك حين أراهم في الصباح أجدهم عراة، لا الثياب الفاخرة، ولا السيارات الفارهة، تستطيع أن تسترهم!

كنت حريصًا على حفظ أسمائهم، ولست أبالغ حين أقول إنني من القمامة أستطيع أن أحدد أسماء أصاحبها، أحفظ أسماءهم، لا أحد منهم يعرفني أو يكترث بي، كيف وهم يأنفون مني، يلتصقون بالجدار إذا صادفني أحدهم على درجات السلم، يضعون أيديهم على أنوفهم حتى أمر، إن رائحتي تؤذيهم!

لا أجرؤ على استخدام المصاعد، فهم يخشون على مصاعدهم أن تتسخ، أن تفقد رائحتها العطرة، كل مصعد يضاجع أعدادًا لا حصر لها من العطور النسائية المثيرة، أصاب دائمًا بالدوار حين يُفتَح باب المصعد وأنا بجواره، أشعر برعشة لذيذة لا أستطيع تحملها، كأني أغوص داخل لحم شهي لامرأة فاتنة.

أقف الآن بالقرب من أغرب عمارة في هذا الحي، عمارة من ثلاثة طوابق، كل طابق به شقتان، واحدة على يمين السلم والأخرى على يساره، الذين يسكنون على يمين السلم في الطوابق الثلاثة يعيشون منعمين وفي رغد من العيش، ولحسن حظي أنهم كانوا يضعون في صناديق القمامة ما يفيض على حاجتهم من أطعمة شهية، ثياب وأحذية يعتبرها أمثالي جديدة، أحيانا تدس نساؤهم في القمامة بعض القطع المذهلة من ملابسهن الداخلية، أعرف أنواع السجائر التي يدخنونها، أنتظر سهراتهم، فتلك غنائم لا يستهان بها.

أما من يسكنون على يسار السلم، فقد لاحظت منذ عام تقريبًا بأن جميعهم قد تبدلت حياتهم فجأة، سكن الفقر معهم، تغيرت مخلفاتهم فلم تعد كما كانت، في بعض الأيام كنت لا أجد لهم قمامة لأحملها، واستمر حالهم هكذا حتى بداية الأسبوع الماضي.

لقد طرأ منذ أسبوع فقط تغير واضح على قمامة تلك العمارة، تغير أثار في نفسي الريبة والشك، مخلفات أحمد بيه وصلت إلى جاره في الطابق العلوي، ومخلفات سهير هانم رأيتها عند جارها عثمان بيه الذي يسكن في الشقة المقابلة لها، علب السيجار الفاخر الذي يدخنه عاطف بيه ورماده الكثيف، كذلك علب البيرة الفارغة التي يعشقها، كانت تملأ صندوق قمامة الأستاذ عبد الهادي زوج الاستاذة عبير الجميلة!

أصابتني الدهشة حين رأيت ذلك لأول مرة، قلت من المحتمل أن

تكون أيدي الأطفال قد عبثت بالصناديق، لكن الأمر قد استمر طوال الأسبوع!

ها أنا اليوم أقسم على أن أفضح أمرهم، سأعريهم جميعًا، تلك العمارة يسكنها جن، بل شياطين، الجن لا يدخن، لا يمارس الخيانة، لا يقبل الرشوة.

بدأت من الطابق الثالث، قمت بفرز القمامة، تأكدت أن الشياطين عاثت في القمامة فسادًا، عند باب كل شقة بعثرت محتويات صندوق قاذوراتها، كنت على يقين أن أصحاب تلك المواخير مازالوا يغطون في نوم عميق، طرقت على الأبواب، واحدًا بعد آخر، وخرجت مهرولًا خارج العمارة، تواريت خلف جزع شجرة، دقائق وبدأ ظهور رجال العمارة، نزلوا الواحد تلو الآخر، يحملون في أيدهم أكياس قمامتهم، خرجت بكبرياء عليهم، أدخن سيجارتي أمامهم لأول مرة، الجميع رفضوا أن أتسلم القمامة منهم، وضعوا قاذوراتهم بأيديهم داخل صندوق عربتي المتهالك، أعطيت لهم ظهري وسرت بعربتي التي يجرها حماري الشريف .

الفهرس

إهـــداء ٥

خلف اللسان ٧

قطعة صغيرة من الشيكولاتة ٢٧

ثمار المانجو والصبار ٣٩

فريال ٤٩

المرآة ٧٣

الذكريات تعزف من جديد ٨٧

أحلام بلا أجنحة ٩٥

السماء تغلق الأبواب ٩٩

طابع بريد ١٠٩

السيد سعودي ١١٧

أبلة فضيلة ١٢٥

يا ولدي إنها الحمى ١٢٩

عالم العجوز ١٣٣

عم آدم ١٣٥

الزبال ١٤٥